

الدرديري محمد عثمان

١٩١٤ - ١٩٥٨



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد الذى أنزل عليه فيما أنزل (وقُلْ اعملوا فَسيرى الله عَمَلَكم ورسُوله والمؤمنون وستُردُّون الى عالِمِ الغَيْبِ والشهادَةِ فينبّئكم بما كُنْتُم تعملَون)

صدق الله العظيم

فهرست

صفحة

إهداء

إلى الشعب السوداني الأبيّ الكريم



صاحب المذكرات

تعريف

لقد جرى العرف فى الحياة الاجتماعية الحديثة ، ان يقوم المرء بتقديم نفسه الى من يلتقى بهم فى حفل أو ندوة ، حتى اذا ما اشترك بالحديث عرف السامعون من الذى يخاطبهم . وفى هذه المذكرات التى اقدمها للقراء ، انما أحدثهم عن احداث حياتى من جانبها العام ، ولا شك ان القراء يودون أن يعرفوا شيئا عن هذا الذى يتحدث اليهم غير انى قد وجدت حرجا فى تقديم نفسى ، وهو حرج زين الي ان اغفل هذا التقديم لولا شعورى بأن هذا الاغفال نقص ، ولولا ان الصدفة وحدها قد اوقعتنى بين أوراقى الخاصة على النشرة الرسمية التى أصدرتها وزارة الداخلية السودانية للتعريف بشخصى عند تعيينى عضواً فى مجلس السيادة لجمهورية السودان ، وها أنا أثبتها فيما يلى دون زيادة :

((ولد فى أمدرمان سنة١٨٩٦ وتلقى تعليمه بمدرسة أمدرمان الوسطى ثم كلية غردون حيث تخرج مدرسا فى مدارس حكومة السودان سنة ١٩١٤ واستمر الى أن طرأت فكرة أخذ الاداريين من السودانيين فكان فى طليعة من انتخب فى السلك الادارى كنائب مأمور ثم صار مأمورا فمحاضرا فى كلية البوليس ولما فتح السلك القضائى للسودانيين كان سيادته أول سودانى احتل منصب قاضى بالمحاكم المدنية فرئيسا لقلم الترجمة القضائية فقاضيا بالمحاكم العليا وكان أول سودانى شغل منصب قاضى محكمة عليا وقد تقاعد بالمعاش فى سنة ١٩٥٢ ودخل الميدان السياسى كسكرتير للجبهة الوطنية وسافر الى باريس على رأس وفد من كبار السودانيين ليدافع عن قضية البلاد أمام هيئة الامم المتحدة كما قام بمجهود بالغ فى محادثات السودان ـ مصر ـ بريطانيا التى تمخضت عن معاهدة سنة ١٩٥٣ والتى نال بموجبها السودان الحكم الذاتى . ونظرا لما يتمتع به سيادته من تجارب قيمة وادراك واسع وفهم صحيح للقضية السودانية فقد انتخب عضوا فى لجنة الحاكم العام التى كانت تشرف على ممارسة سلطات الحاكم العام

وفى يناير سنة ١٩٥٦ وعندما نال السودان استقلاله التام انتخب من البرلمان بالاجماع عضوا بمجلس السيادة .

وهو من الاوائل الذين فكروا فى انشاء نادى الخريجين بامدرمان الذى لعب دوره السياسى والاجتماعى فى الحياة السودانية وكان من أعضاء لجنته التأسيسية سنة ١٩١٨ كما كان أيضا من أوائل من فكر فى قيام مؤتمر الخريجين سنة ١٩٣٨ وقد ترأس أول دورة فيه .

وللسيد الدرديرى فى ميدان الخدمات الاجتماعية والتعليمية مايعرفه الكثيرون ومن أبرزها رعايته لمدرسة بورتسودان الاهلية التى نشأت كمدرسة أولية ثم وسطى وكان له النصيب الاوفى فى انشائها حتى أصبحت بفضل مجهوداته مدرسة ثانوية .

كما كان عضوا بمجلس ادارة كلية الخرطوم الجامعية ولجنتها الدائمة منذ أن أنشئت الي ان تم مستواها الجامعى هذا العام واستقال لما عين عضوا فى مجلس السيادة لجمهورية السودان . »

تصدير

مـا كان يدور بذهنى فى يـوم من الايام اننى سـأجلس لاكتب أو لاملى على أحـد ذكريات وصفحات من حياتى كما يفعل النـاس ، ما كان يدور بخلدى شىء من ذلك لولا الالحاح الشـديد المتواصـل الذى صبه علي ابن اختى السيد يوسف مصطفى التنى ولولا تأثيره علي واقناعى بأن فى ذكره ما يساعد المؤرخين لتاريخ السـودان الحديث فى منتصف القرن العشرين فضرب بذلك على وتر بالنسبة الي جد حساس كما جاءنى من ناحية يعرف ضعفى ازاءها وهى العمل من أجل السودان من أية ناحيـة كانت وفى أى مجال أتيح . فاستجبت الى اقتراحه وفى نفسى بعض النفور لا استغلالا لوجهة نظره ولكن خشية ان يقول قائل ان فلانا انما يتشبه بالعظماء وأصحاب الامجاد ويشـهد الله انه لم يدر بخلدى يوما اننى قد أديت لهذه البلاد حقها الكامل أو ما كنت آمل ان تهيىء لى الايام والظروف اداءه ، ومن هذا شعوره نحو ما أدى لبلاده لن يصح فيه القول بانه يفاخر بما أدى فان كان فى الجهد الذى أديتـه وفى المشاركة المحدودة فى خدمة هذه البلاد العزيزة ما يرى ابنى يوسف انه مما يستحق التسجيل وان غيره يرى نفس رأيه فيه ، لم يكن هنـاك مناص من الاستجابة . وقد وجدت فى الصديق الاستاذ يحيى عبد القادر خير معوان على ذلك . فاسعف ذاكـرتى بما غاب عنى من التفاصـيل ثم صاغ هذه المذكرات بأسـلوبه المشرق الذى يطالعه القارىء فى هذه الصفحات . وعندما يجلس الانسان ليستعرض احداث عمره وهى تعطى نصـف قرن من الزمان لا يسـتطيع أن يتذكرها جميعا فضـلا عن ان يستوعبها جميعا .. ولا يجد بدا من أن ينظر الى تلك الاحداث بعين قراء مذكراته لا بعينه هو فيستبعد ما كان يود أن يذكر وقد يذكر ماكان يود ان يستبعد . وهكذا لا أجد بدا من ان اتخير واختار وأنا انصب لذكريات حياتى هذا الميزان الذى يمسك غيرى بنصابه وحتى وأنا أسرد

هذه الذكريات انما اذكرها عفو الخاطر مع مراعاة التسلسل الزمنى ما امكن ولكن دون التزام وقد رأيت ان ابدأ من البداية دون تفصيل متجاهلا من احداث حياتى الخاصة ما لا يكون ذا صبغة عامة أو معلما من معالم تطورات هذه البلاد والله الموفق والمعين .

الدرديرى محمد عثمان

أول محرم سنة ١٣٨١
١٤ — ٦ — ١٩٦١

بين التلمذة والتدريس

التحقت بالمدرسة الأولية فى أمدرمان سنة ١٩٠٥ وقضيت أنا والسيد احمد محمد صالح والسيد ميرغنى حمزه سنة واحدة فقط فى الكتاب نقلنا بعدها الى المدرسة الابتدائية .

وأمضينا أنا واحمد محمد صالح وميرغنى حمزه سنى الابتدائى الاربع وزاملنا فى المرحلة الثانوية المرحوم محمد الحاج الامين وتخرجنا ثلاثتنا كمدرسين ، وكنا كل الدفعة ! أما ميرغنى حمزه فقد التحق بقسم المهندسين .

وكان انصراف الناس عن التعليم المدنى فى ذلك العهد المبكر من حياة السودان استجابة لمخاوف وهمية وشعورا بسوء الظن فى كل ما يصدر من المستعمرين ، قد قلل من عدد الطلبة فى المدارس الى حد لا يمكن تصوره .

كانت المدرسة كلها تتألف أحياناً من مجموعة من الطلبة تكاد تقارب عدد المدرسين وربما كان هذا المنظر أشبه بالتعبيرات الكريكاتيرية المثيرة للسخرية . ولكنه كان فى واقعه أمرا محزناً جديرا بأن يثير اقصى غايات الاشفاق وكان الطلبة فى ذلك العهد يلزمون باللبس الافرنجى يتوجه (الطربوش) الذى لازمنى حتى الآن ، حتى أصبح أحد مظاهرى الدالة عليّ وحتى قال لى أحد الصحفيين ذات يوم ان الطربوش أصبح جزءاً من شخصيتك حتى ليشك المرء فى شخصك ان لم تكن لابسه .

وقد درجت على لبس الطربوش منذ عهد الدراسة فى مدرسة أمدرمان الاولية حتى كلية غردون اذ كان هو غطاء الرأس الرسمى للطلبة فى ذلك الحين ، كما كان غطاء الرأس الرسمى لكل رجال الدولة بعد الفتح بما فى ذلك السودانيون والانجليز على السواء .

وقد كان حرصى على لبس الطربوش بعد الدراسة يرجع للعوامل الآتية : —

أولا : ليس للسودانيين من لابسى اللباس الافرنجى غطاء رأس قومى •

ثانياً : عدم ارتياحى للبس البرنيطه لانها غطاء الرأس للاوربيين •

ثالثاً : الطربوش غطاء رأس اسلامى يمكن ارتداؤه عند الصلاة أيضاً •

يضاف الى ذلك اننى لم اكن أطيق ما يفعله الآخرون من ترك الرأس عارياً لعوامل صحية وتقليدية ولا بد هنا من ذكر عامل الالفه وقد قال الشاعر : —

خلقت الوفا لو رجعت الى الصبا

لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

وقد يكون ذا طرافه تاريخيه ان اطلع القراء على صورة لتلاميذ كلية غردون فى عام ١٩١٢ (وكنت بينهم) ولعل الناظر اليها لا يخطىء الرئيس اللواء محمد نجيب وهو الاول من الصف الرابع (الجلوس) •

واذكر قبيل تخرجى ان دعانى المستر سمسون ناظر كلية غردون آنذاك وقال لى : —

هل تعرف سلاطين باشا ؟

فأجبته — لا — قال انه يطلب مقابلتك هل تعرف مكتبه • ؟

اجبته — لا

قال لى — انه فى ديوان الحربية ••• وسلاطين باشا هو مفتش السودان العام •

ثم انصرفت وذهنى مشغول بهذه المقابلة التى لم اكن اتوقعها ومن شخص لا اعرفه ولم اكن اعلم بوجوده من قبل •

وذهبت غـداة ذلك اليـوم الى ديوان الحربية حيث سألت عن مكتب سلاطين .

وبعد ان اهتديت اليه ، استأذنت فاذن لى وادخلنى عليه الحاجب واستقبلنى الرجـل بالبشر ... وصافحنى بيد تفقد أحـد أصابعها .
وقال لى فى لهجة الجعليين الاصلاء : شـديت ضهرنا ياود محمد عثمان . لقد سألت عنك مدير المعارف فأبلغنى بانك ناجح جدا .

وكان يكلمنى ويده فى جيب البنطلون تعبث بالنقود وأنا أسـمع رنينها .

وقال هل تريد شيئا . ولعله كان ينتظر ان أسأله عـونا ماديا .. فأجبته بعد ان كرر سؤاله مرة أخرى قائلا : ياسعادة الباشا اننى اتممت التعليم فى بلادى وأنا الآن صغير السـن ... اذ ان عمرى لم يتجاوز السبعة عشر عاما ... وأهلى غير محتاجين لمسـاعدتى ، فاطلب منك ان ترسلنى لأكمل تعليمى فى بلادك انجلترا . (وكنت اعتقد ان سـلاطين باشا انجليزى) ولم اكد انتهى من جملتى حتى بدت عليه مظاهر الدهشة ثم اخرج يده من جيب البنطلون فى هدوء .

وقال لى : ياود محمد عثمان ... لقد طلبت منى شيئا ليس من سلطتى . وسوف أسأل معالى الحاكم العام . وافيدك سريعا . شد حيلك مع السلامة وسلم على أخيك خالد .

ثم خرجت .

وبعد ثلاثة أو اربعة أيام طلبنى المسـتر سمسون فى مكتبه ... وقال لى فى لهجة غير ودية : ماذا قلت لسلاطين باشا ؟

فأعدت عليه تفاصيل ما دار بينى وبين سلاطين باشا .

فقال لى : هو مش انجليزى .

اجبته : اننى لا اعرف ذلك .

ثم قال : ان سلاطين باشا قـد تحدث الى وقال انه سـأل معالى الحاكم العام عما اذا كان فى الامكان ارسالك للتعليم فى انجلترا ، ولكن الحاكم العام عبر عن أسفه لعدم امكانه اجابة طلبك لان الوقت لم يحن لارسال بعثات من السودان للتعليم فى الخارج .

واستطرد المستر سمسون يقول : وقد عينك مدرسـا رغم صغر سـنك .

ثم تناول كتابا بيده وقال وهو يبتسم : اذا أنت تعلمت فى الخارج سوف تعود لتقول للانجليز اخرجوا من السودان .

ودون ان ينتظر اجابتى قال لى (ايذاناً بالانصراف) مع السلامة : فخرجت وأنا اذ ذاك دهش لهذه السلسلة المتصـلة الحلقات التى تتنقل المعلومات بينها بسرعة البرق .

وقد علمت من أخى خالد فيما بعد ، عندما ابلغته تحية سلاطين باشا أن سلاطين كان صديقا لوالدنا عندما كان سلاطين أسيرا (مسلما) يهلل ويكبر فى الصلوات الخمس فى عهد المهدية .

والآن حمدت الله الذى حقق ظنهم بى ، فاشتركت مع الذين عملوا لاستقلال السودان واخراج الانجليز منه .

وكان أول تعيينى فى عام ١٩١٤ مدرسا للغة الانجليزية بمدرسـة أمدرمان الابتدائية ــ كما كانت تسمى آنذاك ــ وكانت المرتبات قليلة فى ذاتها حتى بدون ان تقارن بمرتبـات زملائهم من مصريين وانجليز . فكان مرتب القضاة الشرعيين ومدرسى العربية خمسة جنيهات فى الشهر لكل منهم ، ولمدرسى اللغة الانجليزية سبعة جنيهات وللمهندس ثمانيـة جنيهات وكانت العلاوات قليلة بطيئة ، وكان دفاع الانجليز عن هـذه المرتبات الضئيلة ان معيشة السودانيين لا تتطلب مالا فكل ما يحتاجونه هو اللحم الناشف (الشرموط) والذرة ليصنعوا منها طعاما يأكلونه فى قصعات من الخشب (القدح) ! وهـذا الدفاع (على فرض ان كانوا

صادقين فى وصفهم لمتطلبات حياة السودانى) دفاع يكفى لاثبات اتهامهم بانهم ما كانوا يعملون لرفع مستوى حياة هـذا الشعب الذى وقع بين براثنهم وزعموا انهم جاءوا لرفعه وتمدينه ، ولم يكتف الانجليز بفرض هذه المرتبات الضئيلة بل كانوا كما قدمت يبطئون فى صرف العـلاوات حتى عندما تستحق حسب قانونهم السائد فى ذلك الوقت . وقد حدث ان حرمت أنا وافراد دفعتى من المدرسين من احدى علاواتنا ، فحلفت بالطلاق ان استقيل ان لم تصلنى علاوتى . فنقل هـذا الخبر الى مدير المعارف . فاستدعانى وسألنى عن صـحة واقعة الحلف فأيدتهـا له . فقال لى أنا لم أحرمك علاوتك ولكن مصلحة المالية تقول انك صـغير السن وتساءلت كم يكون مرتبك بعد خمس وعشرين سنه لو سـارت زيادة مرتبك بهذه الخطوات ؟ فقلت له : هل قانون الدرجات ينص على ان سير العلاوات مرتبط بالسـن ؟ فقال : لا ــ قلت اذن اعطـونا حقنا الذى رسـمه لنا القانون الذى وضعتموه بانفسكم . عندئذ حاول ان ينقل الجدل الى ميدان آخر ، فقال لى لعلكم لا تقدرون مهنة المدرس . انها مهنة لا يقوم صاحبها بالمال وانما بما ينتجه لبلاده من رجال مثقفين يبنون وطنهم . ألا تكون مسروراً بعد عشرين عاما مثلا عندما ترى ان كبار موظفى الدولة من تلاميذك؟ قلت له ربما شعرت بالحسرة انوجدت اننى متخلف عنهم ، لاننى سأجد نفسى كحجر المسن ، يسن ولا يقطع . هـذا ما قلته آنذاك أما انصافا له فاقول اننى قد تذوقت السرور الذى أشار اليه عندما رأيت ان من بين تلاميذى من اداروا دفة هـذه البـلاد أمثال الاستاذين عبد الفتاح المغربى واسماعيل الازهرى . ثم أنهى المدير مقابلتى له بان قال لى : تعود مستقبلا ان تطالب بحقك ولكن بدون ان تحلف ، ولا تنقل ما دار بيننا الى المدرسـين . وبعـد أيام صرفت لى ولزملائى تلك العلاوة التى حاولت السلطات حرماننا منها .

وكما يقولون فى المثل الدارجى (يموت الزمار وأصبعه تلعب) فان اعتزازى بمهنة التدريس لم يفتر وتتبعى لسير التعليم فى السودان لم ينقطع حتى بعد ان تركت مهنة التدريس . وقد حدث فى عام ١٩٣٧ حينما كنت

أحد اعضاء وفد السودان لحضور حفلات تتويج الملك جورج السادس ملك بريطانيا ، ان اجتمع بنا أحد كبار البريطانيين المهتمين بالتعليم ــ وقد غاب عنى اسمه ــ وسألنا : كيف حال التعليم فى بلادكم ؟ فقلت له بكل أسف وصراحة انه متدهور . فقال فى اهتمام : كيف ذلك ؟ فأجبته : نحن الذين ترانا من أوائل الخريجين وبعد مضى ربع قرن تقريبا على تخرجنا فاننا نشعر ان مستوى التعليم فى أيامنا أرقى مما هو الآن . ومن أسباب ذلك انه بعد ان غادر السودان كل من السير جيمس كرى ونائبه المستر كروفوت ــ وكلاهما من رجال التعليم ــ اسندت مصلحة المعارف الى مفتشين اداريين من حكومة السودان ، وليس بينهم رجل اختصاص وربطوا بين التعليم والسياسة فنزل المستوى . فرد الرجل مؤمنا : هذا هو السبب ! وقد علمت فيما بعد انه كانت نتيجة هذه المحادثة ان عين المستر كوكس مديراً للمعارف السودانية ويذكر المعاصرون ما عمله هذا الرجل لرفع مستوى التعليم . وما كانت شكواى من انخفاض مستوى التعليم فى زمن تلك المحادثة تعصبا على غير حق ، ولكن استنادا على المقارنة بين ما كان يدرس لابنائنا وما كنا نتلقاه فى كلية غردون على أيدى فطاحل الاساتذة المصريين أمثال المشايخ الخضرى والغمراوى وعبد الرؤوف سلام وفؤاد الخطيب والجداوى وغيرهم وما كان مقررا لنا من كتب أمثال احياء علوم الدين للغزالى والكامل المبرد وما فى مستواهما . كما اذكر اننا كنا نتلقى دروس اللغة الانجليزية من ثلاثة أساتذة مع ان عددنا نحن طلبة قسم المدرسين فى دفعتنا لم تتجاوز الثلاثة .

تلك أيام خلت ، ووضع التعليم فى أيدى أبناء بره من رجال هذه الامة ، مؤتمنين على أماناتهم ، يدأبون ليل نهار لرفع مستوى التعليم فى بلادهم وصدق وعد العزيز الحكيم (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) .

الطلائع الأولى

بدأت حياتى فى المحيط الاجتماعى عام ١٩١٧ حين تهيأ الوسط المناسب لذلك وكان السودان آنذاك يحاول ان يستيقظ ، لقد أخذت الطلائع الاولى من خريجى كلية غردون تتقلد الوظائف والاعمال ذات المسئولية المحدودة . وظهر أثر هذه الطلائع فى محاولات فردية خالصة. بعض هذا الاثر كان جيدا ومفيدا وخليقا بالاقتداء ومتفقا مع تقاليدنا وآدابنا وما درجنا عليه من فضائل وبعضه غير جيد ولا مفيد وربما كان ضارا ... كما بدا من أولئك الذين مضوا يتشبهون بالبريطانيين فى الجانب المظلم من حياتهم كشرب الخمر ولعب القمار والتعاظم الكاذب فى المشية والجلوس والمعاملات . وكانت الحرب العظمى قد قرعت أبواب السودان فى عنف ... وهزت الجيل الناشىء غير ذى التجارب باحداثها المتتابعة ، وغيرت فى ذهنه وتصوراته الكثير من المقاييس ، ولونت الكثير من المعالم وكانت ثمة طوائف صغيرة من الخريجين تتلمس طريقها الى النور .. يستبد بها الشعور بضرورة العمل لخير هذه الامة وينتابها القلق من المصير المجهول .

وكانت هذه الطوائف الصغيرة تتلفت فى حيرة واضطراب تبحث عن مخرج أى مخرج فى هذا التيه المتسع العريض .

الجهل يخيم على الشعب ... كل الشعب ، والفقر منتشر فى أنحاء البلاد والتأخر يبدو فى كل مرفق ... وأسباب الاصلاح غير موفورة .. بل معدومة والمستعمر القابض على أجهزة الدولة واعناق الناس ، لايترك متنفسا لاحد والحرية عملة غير متداولة وغير متعارفة فان الضربة القاصمة التى لقيها السودانيون فى كررى وما تلاها ، خلقت حالة من الذهول انست جل الناس كل المعانى الكبيرة .

وكنت ترى الى ذلك النفاق المريع والذلة المنكرة ... والشعور

بالقصور ومظاهر الانانية والضعف المخزى ... وكنت ترى الى جانب ذلك ألوانا من الكبرياء المهيضة والعزة الجريحة والكرامة المهدرة ...

وليس بدعا **« أن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون »**

بداية اليقظة

ووجدت نفسى ذات يوم اتحدث الى صفوة من الخريجين عن الاحوال الجارية وتطرق الحديث الى واجبنا بوصفنا الفئة المستنيرة فى القيام بعمل يفيد منه المواطنون وفكرنا وقدرنا وذهبنا نعالج الموضوعات الواحد تلو الآخر جريا وراء تحديد الهدف وتلمسا للسبل المؤدية اليه .

وكان الطريق أمامنا غير واضح ... بل كان شديد الابهام ... وشجعتنى الاستجابة السريعة من هؤلاء الزملاء ، والتجاوب فى الرغبات والآمال الى معاودة الاجتماع بهم المرة بعد الأخرى .

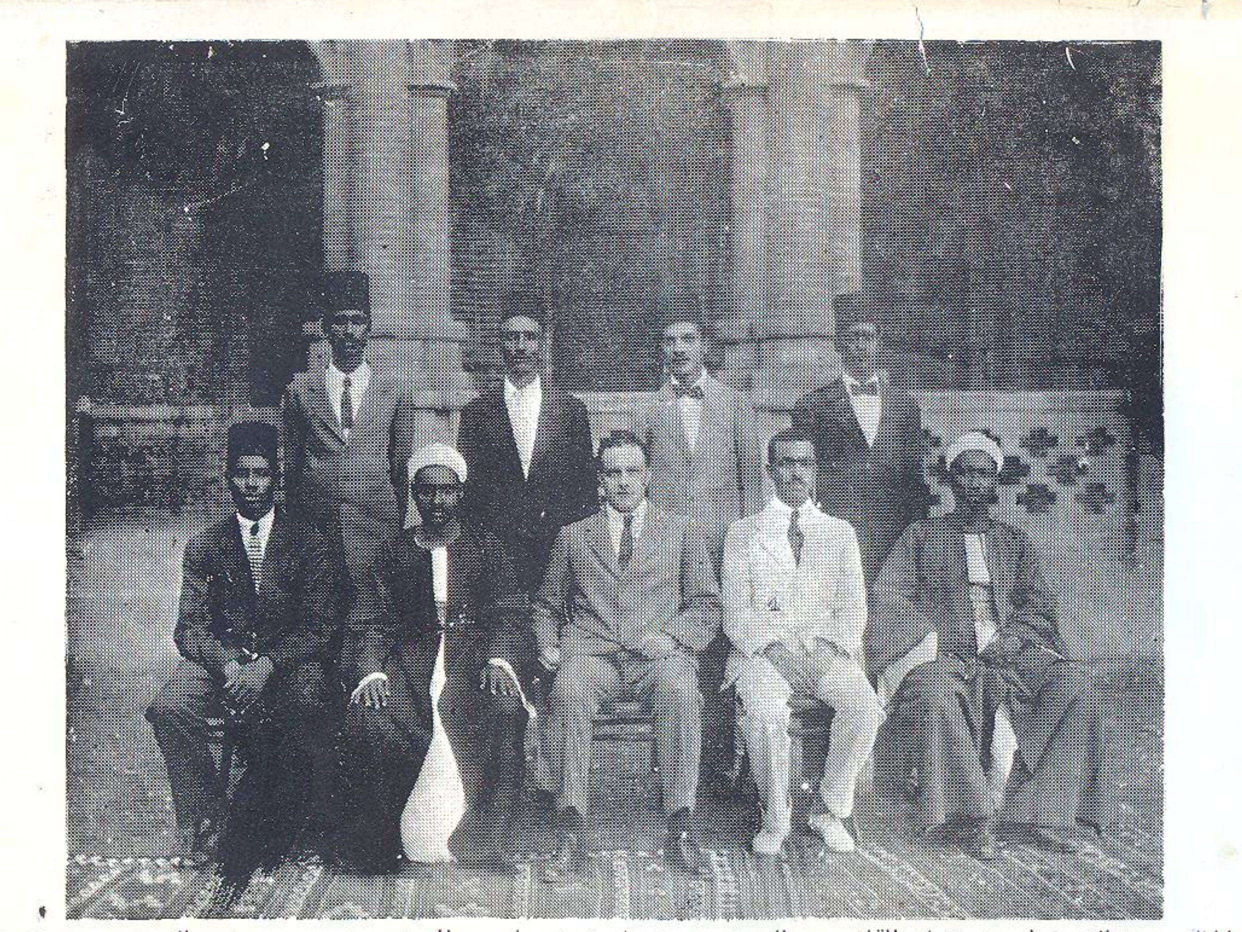
كنا أشبه بالضال فى صحراء مقفرة ما بين الجانبين يناضل قوى وصعابا بغية الاهتداء الى واحة مجهولة .

واذكر ان اجتماعاتى الاولى اقتصرت على الزملاء : حسين شريف واحمد السيد الفيل واحمد عثمان القاضى ، رحمهم الله ، ومحمد على سليم أمد الله فى أيامه . وواصلنا هذه الاجتماعات تحت اسم (جمعية ترقية الاكل البلدى) عملا على التغطية والتوقى ليظن الرقباء اننا نجتمع لاكلة شهية وحسب ، وهم لا يدرون ما يدور بعدها من حديث ونقاش .

ولعلنا ، واكثرنا مدرسون ، كنا نندفع بوحى المهنة لنقل مهمتنا فى التربية والتعليم والارشاد من ميدانها الضيق فى المدارس الى ميدان ارحب يشمل أكبر عدد من أفراد المجتمع .

فكرة النادى

ولم تلبث فكرة قيام ناد للخريجين ان استحوذت على أذهاننا وبثثنا



(الجالسون) الشيخ احمد عثمان القاضى ـ السيد محمد على محمد سليم ـ المستر م. ب سمسون ـ السيد حسين شريف ـ السيد محمد الحاج الامين ـ (الواقفون) الدرديرى محمد عثمان ـ السيد طه صالح ـ السيد محمد الحسن دياب ـ السيد ابراهيم اسرائيلى .

الفكرة هنا وهناك ... ونقلناها من جماعة الى أخرى ... فوجدت الفكرة اقبالا واستحسانا فى كل مكان ، وبعد ان استكملت اطوار النضوج انتقلت الى حيز التنفيذ . وتكونت لجنة تمهيدية من الزملاء حسين شريف ، واحمد عثمان القاضى ومحمد على محمدسليم وشخصى.

وقد عهد الىّ والسيد محمد على سليم بصياغة الطلب الى الجهات الرسمية ... فألتزمنا فى الصياغة لهجة دبلوماسية تجمع بين الحفاظ على الكرامة ومراعاة الوضع القائم آنذاك ورغم هذا الحرص الشديد ... التوقى والتلطف ... فقد علمنا ان الطلب عندما رفعه السكرتير الادارى الى مجلس الحاكم العام لقى اعتراضا من بعض أعضاء المجلس ولم تتم الموافقة عليه الا بشرط ، وهو أن يكون رئيس النادى مدير المعارف الانجليزى أو من ينوب عنه . ولم نجد مناصا من قبول هذا الشرط فقد كان من سياستنا يومذاك ان نعمل على مداراة البريطانيين لكى نحقق من هذا الطريق ما نرمى اليه من أعمال . واختار مدير المعارف نائبه المستر سمسون لرئاسة النادى الفخرية ، واجتمع الخريجون وانتخبوا اللجنة وهم السادة المرحوم السيد حسين شريف ، المرحوم السيد محمد الحاج الامين ، السيد محمد على محمد سليم ، المرحوم الشيخ احمد عثمان القاضى ، المرحوم السيد ابراهيم اسرائيل ، السيد محمد الحسن دياب، المرحوم السيد طه صالح، الدرديرى محمد عثمان.

النادى يدخل التاريخ

واتجهنا فى النادى منذ اليوم الاول الى الاصلاح، وبدأنا من البداية

انك اذا أردت ان تصلح من أمور الآخرين فاصلح من أمور نفسك أولا . وهكذا شرعنا فى اصلاح أنفسنا نحن معشر الخريجين قبل غيرنا .

اننا نعتزم تكوين نواة لجيل صالح يتحمل المسئولية العامة . وكانت البداية ساذجة ولكنها تتفق مع ظروفنا وامكانياتنا والمفهومات المتعارفة يومذاك وفى داخل النادى ، احتفظنا نحن جماعة ترقية الأكل

البلدى برابطتنا القديمة وجعلنا من أنفسنا لجنة مهمتها رعاية السلوك الشخصى للخريجين وارشاد المنحرفين منهم ثم توسعنا فى تشكيل هذه اللجنة حتى تمثل طوائف الخريجين حسب مهنهم . وكان بينهم من مدرسى اللغة العربية السيدان حسين شريف واحمد عثمان القاضى رحمهما الله ، ومن مدرسى الانجليزى شخصى الضعيف ومن المهندسين السيد محمد على سليم ، ومن القضاة الشرعيين الشيخ احمد السيد الفيل رحمه الله ومن الضباط اليوزباشى احمد عبد الله سعد رحمه الله وقررت اللجنة ان تعطى نمرا لسلوك الشخص على الوجه التالى : —

١٠ الدين — ١٠ الاجتماعيات — ١٠ الوطنية

وقد نجح من نجح ورسب من رسب . وكان المدرسون فى مقدمة الناجحين وساعدت هذه المقاييس على تحديد مستوى معين للسلوك الشخصى للمواطن الصالح من الخريجين .. يحاول كل منا ان يحافظ عليه ، كما كنا نجاهر كل فرد برأينا فيه على ضوء تلك المقاييس وما اكثر من تقبل آراءنا واعتدل .

ومن حقى ان اقول أنه بالرغم من أن اعمال هذه اللجنة لم تنل حظا من الذيوع والاهتمام فقد رسمت منهجا وأوضحت طريقا . ولم تذهب مجهوداتها هدرا . لقد كانت جزءاً من تقاليد السلوك العام الباقية للآن . لقد رمينا بالحجر فى البحيرة الراكدة فولدت الموجة بعد الموجة واتسعت لتشمل دوائر اكبر فاكبر .

وليس هذا بالامر اليسير .

المستر سمسون

وكان المستر م.ف سمسون رئيس النادى رجلا رحب الصدر واسع الافق على شىء كثير من المرونة . فلم يكثر من الظهور وترك للاعضاء السودانيين مهمة (تسيير) النادى دون ان يشترك معهم فى قليل

أو كثير ، برغم ان الفكرة الحكومية من وجوده كانت الرقابة على اللجنة .

كانت رئاسته شرفية محضة لم نحس بها ولم تقف فى طريقنا . وقد بذل أعضاء النادى غاية جهودهم للمضى بالسفينة قدما الى الامام ، فلم يعقهم ارتفاع الامواج ولا انبهام المسالك ولا بعد المسافة . ان النفوس الكبيرة (وقد كان عدد من أعضاء النادى من هذا الطراز) لا تحـد نشاطهم الوسائل بقدر ما تحدد نشاطهم الغايات ، ذلك ان الحوافز النبيلة تولد فى هذه النفوس طاقاتها الهاجعة فتندفع لتصنع المعجزات .

وليس كثيرا ان نقول هذا الكلام على بعض أولئك الاعضاء فانهم كانوا يخلقون من لا شيء أشياء ومن العدم امكانا .

ان الذى يوقد الشعلة المضيئة عظيم بلا شك ولكن أعظم منه ذلك الذى اكتشفها .

وانقضى عهد المستر سمسون فى النادى بتعيينه فى منصب فى القطر المصرى . وتلقينا منه خلال وجوده فى مقره الجديد خطابا وداعيا كثيرا ما لاكت الالسن بعض عباراته . وقد جاء فى هذه الرسالة قوله المشهور :ـ

« وددت لو اننى بقيت معكم مدة أطول لاذلل لكم الصعاب التى تعترضكم والتى أخالها لا تزال قائمة فى طريقكم . وانى لارجو ان يلعب هذا النادى دورا هاما فى تاريخ بلادكم . »

ذاتية الخريجين

وبرزت ذاتية الخريجين شيئا فشيئا ووضح كيانهم وأصبحوا عاملا مؤثرا فى المحيط العام ... ولم تعد حكومة السودان تستطيع تجاهلهم كقوة جديدة ذات خطر .

وكان النادى يمثل الخريجين فى كل السودان .

وكان كل ما يدور فيه يتناقل بسرعة البرق الى أنحاء البلاد المختلفة وكانت له زعامـة حقيقية على الكثير من الخريجين . وكانوا كلهم كتلة

واحدة حتى وقع الانشقاق المشـــهور فى عام ١٩٣١ . ولم يكن هــذا الانشقاق بدعا فى امثال مجتمعنا الناشىء المتحفز لقد كان نتيجة المنافسة على العمل لخير هذه البلاد فمهما يكن الرأى حوله لقد كان خيرا كاللهب المضىء ينبعث من الاحتكاك .

جماعة الفجر

ولا بد من وقفة قصيرة هنا قبـل الاسترسال فى هــذه الذكريات للحديث عن جماعة من الخريجين كان لهــا بعد ذلك طابع واضــح على التفكير الســـودانى ، وكان لهــا مقام ملحوظ فى نادى الخــريجين فى الثلاثينيات واعنى بهم (جماعة الفجر) .

كان عرفات محمد عبد الله رحمه الله شــابا سودانيا طموحا بعيد الآمال كبير القلب عميق الفكرة ، واسع الثقافة .. تنقل فى الخارج حينا ، واختبر ودرس ثم جاء الى بلاده واجتمع الى نخبة من الخريجين وكون صداقات أصبحت بمرور الزمن ذات اصالة وعمق .

وكان هؤلاء الاصدقاء يشاركونه فى الرأى والمنهج والاسـلوب وفى طليعة هؤلاء محمد احمد محجوب وعبد الحليم محمد ويوســف مصطفى التنى .

وفى عام ١٩٣٣ أصدروا مجلة (الفجر) التى اطلق على جماعتهم فيما بعد اسمها واتسعت دائرة هذه الجماعة بصدور المجلة وانتشارها ، وسحر ما فيها من اتجاهات وافكار كانت جديدة على الناس وذات مذاق رائع ... سواء فى الادب أو السياسة .

وكانت الصلة الوثيقة التى تربطنى بالمرحوم محمد عبــد الحليم وابنه الدكتور عبد الحليم محمد وابن اخته السيد محمد احمد محجوب قد ربطت بينى وبين عرفات وأصدقائه فساهمت مساهمة متواضــعة فى اصدار تلك الصحيفة ، وفى تشجيع الجماعة وواصلت هذه المساهمة بعد وفاة المرحوم عرفات .

وكان السبب فى مناصرتى لهذه الجماعة وعملى على تركيز المجلة التى اصدرتها ، يرجع الى اعتقادى بأن نشاط هذه الجماعة يخدم الحركة الفكرية عامة فى السودان كما يخدم الاهداف الوطنية الاصيلة التى كنا نعمل لها بانشاء النادى . وهى الاهداف التى تتركز فى خلق وعى قومى ومحاربة الخرافات والاوهام وتجنيد القوى لقيام سودان حر مستقل .

معاوية محمد نور

وكانت مناصرتى لمجلة الفجر منبعثة من ايمانى بالدور الذى يستطيع ان يلعبه حملة الاقلام فى ايقاظ هذه البلاد وتقدمها ، ومن هذا الايمان نفسه نبعت العناية الخاصة التى أوليتها لابن اختى المرحوم معاويه محمد نور عندما توسمت فيه نبوغا مبكرا واستعدادا أدبيا ممتازاً .

لقد سافر معاوية الى الخارج ليتلقى تعليما عاليا فى عام ١٩٢٨ ونجح فى الحصول على شهادة بكالوريوس آداب من جامعة بيروت .

وقد بذلت كل ما استطيع من جهد ورعاية فى سبيل دفعه الى الامام .

وكانت كتاباته الرائعة القوية تنشر بالعربية فى السياسة الاسبوعية وبالانجليزية فى الاجيبشان جازيت . وما أكثر ما هزت مقالاته دار المعتمد البريطانى فى مصر ودوائر حكومة السودان ولمع أسمه ونال الاعجاب والتقدير من رجال الادب والسياسة فى مصر وفى مقدمتهم الاستاذ العظيم عباس محمود العقاد . وعمل فى الصحافة المصرية حينا ثم عاد الى السودان لكى يفيد بلاده .

أما كتاباته فى الادب العربى والانجليزى فتملأ مجلدا لعل الظروف تتيح جمعها واصدارها فى كتاب خاص .

كانت الأمال فيه كبيرة ، لقد كان كثير القراءة دائم الاطلاع جيد الانتاج يشكو من انه يفهم اسرع مما يجب، وكان لو أمهله القدر مرجوا

ان يؤدى خدمات جليلة لهذا البلد لولا ان عاجله الموت فى عمر الزهور فذهب مبكيا على شبابه ونبوغه وطموحه ولم يتجاوز الثلاثين من عمره . لقد جاء قبل أوانه وذهب قبل أوانه .. أسكنه الله فسيح جناته .

جريدة الصوت

وبالدافع الذى ساقنى للتعاون مع أسرة « الفجر » ساهمت فى انشاء جريدة (صوت السودان) عام ١٩٣٩ وكنت عضواً فى مجلس ادارة شركة السلام التى تصدر الجريدة ... وكان المرحوم الشيخ احمد السيد الفيل رئيس مجلس الادارة وبالاضافة الى عضويتى بالمجلس كنت أيضا مدير ادارة الجريدة ومطابعها لفترة تبلغ الخمس سنوات أو تزيد ، وكان رئيس تحرير الصحيفة آنذاك الاستاذ محمد احمد السلمابى . وتبع ذلك أن صرت مشرفا عاما على التحرير ومخططا للسياسة العامة للصحيفة .

كان الهدف من انشاء هذه الجريدة هو خدمة البلاد ... وحفظ التوازن فى الرأى العام .

واعتقد وانا مخلص فيما اقول ان (الصوت) قد قدمت خدمات جليلة للوطن كله ... لا للطائفة الختمية فحسب .

لقد كانت طوال سنوات الاستعمار منبرا حرا يجول فيه كبار الموظفين الاحرار ويصولون وكانت سياستها .. قومية خالصة .

ولقد لقيت هذه الجريدة الحرب من المستعمرين ولقى محررها الضغط والارهاب والسجن وكانت فى أوقات الحرب تواجه بكثير من المتاعب ولكنها صمدت .

وكان أول رئيس تحرير للصوت هو الاستاذ محمد عشرى الصديق ثم تتابع عليها الاساتذة اسماعيل العتبانى وعبد الله ميرغنى ومحمد احمد السلمابى ، واحمد السيد حمد فكانت بذلك الميدان الاول لتدريب أولئك الاعلام .

فكرة مؤتمر الخريجين

وفى النادى برزت فكرة جديدة وهى ان تكون هيئـة تمثل كل الخريجين وتتحدث باسمهم وكنت من أوائل من تحدث عن هذا الموضوع وكان ثمة اخرون يشاركونى هذه الفكرة •

وجرى نقاش كثير حولها وصلت بعده الى شكلها النهـائى باسم مؤتمر الخريجين والواقع ان الحاجة الى تكتل الخريجين وتسلمهم قيادة البلاد السياسية قد أحس بها كل من تهمه أمر البـلاد والخريجين مع اختلاف اشكال ذلك التكتل وهذا ما يفسر كيف ان الكثيرين يقولون انهم أصحاب الفكرة وفى رأيى انهم صـادقون موضـوعا وان اختلفوا شـكلا •

وتكونت لجنة تمهيدية لكتابة طلب التصريح بالمؤتمر من السـيد احمـد محمد صالح وشخصى ، وسـهل الحصول على التصديق لأن البريطانيين كانوا يأملون ان تكون هذه الهيئة جبهة جـديدة تقف الى جانب السادة الثلاثة •

(على الميرغنى ــ عبد الرحمن المهدى ــ الشريف يوسف الهندى) فيكثر المتنافسون على زعامة الشعب وينقسم المواطنون ولـكن خابت أمالهم • وفيما يلى نص الخطاب المذكور :

سعادة السكرتير الادارى لحكومة السودان
بكل احترام يتقدم الموقعون على هذا بالخطاب التالى

تعلمون من غير شك ان خريجى كلية غردون والمدارس الاخـرى التى هى أعلى مستوى من الكتاب هم الطبقة المثقفة فى البلاد وبهـذه الصفة فان مصلحة البلاد العليا تحتم عليهم ان يتعاونوا مع حكومة البلاد فى كل ما من شأنه أن يزيد فى تقدمها ورفاهيتها بالطـرق التى يرونهـا مفتوحة أمامهم لذلك قرر هؤلاء الخريجون منذ شهور أن يعقدوا مؤتمرا فى نادى الخريجين بأمدرمان ليتخذوا الخطوات اللازمة للوصول للغاية

المشار اليها آنفا وقد انعقد المؤتمر فعلا فى اليــوم الثانى عشر من شهر فبراير سنة ١٩٣٨ وحضره ما يقرب من الألف ومائة وثمانين خريجا منهم عدد لا بأس به من الاقاليم وانتخب المؤتمرون لجنـــة مكونة من ستين عضوا بالاقتراع السرى وانتخب هؤلاء الستون من بينهم خمسة عشر عضوا ليكونوا اللجنة التنفيذية الدائمة . ونرفق مع هــذا ، القــوانين واللوائح التى تعمل بموجبها هاتان اللجنتان .

ان واجبنا كما يبدو يتلخص فى محيطين أساسيين واضحين الاول فى الامور الداخلية التى تهم السودان وحده والتى لا تكون من اختصاص الحكومة كالاصلاح الاجتماعى والاعمال الخــيرية الخ .. والشــانى فى مجال تلك الامور العامة التى تخص الحكومة أو تخص ســياستها ففى المجال الأول فاننا سنعمل مستقلين عن الحكومة ولكن بروح الصداقة والتعاون معها ووفق مقتضيات القانون القائم والاوامر المحلية السائرة . أما فى المجال الثــانى فان رغبتنا الصــادقة هى أن توافق الحكومة على اتصالنا بها من وقت لآخر لنقدم لها آراءنا واقتراحاتنا فى هذا الصدد .

ليس غرضنا على أى حال أن نزعج الحكومة أو أن نحرجها أو ان نضغط عليها فى قبول آرائنا بل الغرض هو أن نساعد الحكومة فى سياسة التقدم التى ترسمها لازدهار البلاد واننا جميعا موظفون فى حكومة البلاد ونحب أن نؤكد لها اننا نقدر حق التقدير واجبنا نحوها كمخدم لنــا وواجبنا نحو وظائفنا ومسئولياتها فى الخدمة المدنية (ومن جهة أخرى فان الحكومة) تعلم اننا الطبقة المثقفة الوحيــدة فى البلاد وبهذه الصفة علينا واجبات نحو وطننا يجب علينا أن نقوم بها ونحب أن نؤكد اننا لا ندعى اننا نمثل البــلاد بالمعنى المعروف ولا نريد أيضا أن يعزف عنا اننا نقف ضد أى طائفة أو جماعة فى البلاد . اننا نعلم أن فى البلاد جماعات أخرى نعترف بأهميتها ووجودها ولا نريد أن نتجاهل حقوقها أو ان نأخذ شيئا من هذه الحقوق ولكنا فقط نريد أن نسهم معهم فى تقدم البلاد ورفاهيتها .

اننا نتقدم بهذا الخطاب لاعتقادنا الراسخ بأننـــا كالطبقة المثقفة فى هذه البلاد يمكننا أن نساعد على تقدمها ورخائها وعلى اعانة الحكومة فى هذا المضمار اننا نحب أن يقوم بيننا وبين الحكومة الثقة المتبـــادلة وحسن التفاهم والتعاون الصادق ونعتقد جادين ان هذه هى نية الحكومة أيضا فقد رأينـــا أن الحكومة كانت فى مناسبات كثيرة تستنير بالآراء الفردية الخريجين ولكنا نعتقد أن الوقت قد حان لأخذ هذه الآراء من المثقفين مجتمعين ذلك أجدى وانفع للبلاد .

وبعد هذا الخطاب تم التصديق بقيام المؤتمر وعند أول اجتماع له فى عام ١٩٣٨ أنتخبت هيئة تتكون من ستين عضـــوا فأنتخبت بدورها لجنة تنفيذية من خمسة عشر عضواً (وكان لى الشرف اذ كنت من بينهم) ولها سكرتير دائم ورئاسة دورية تشمل كل أعضاء اللجنة على ان يتجدد انتخاب الهيئة الستينية واللجنة التنفيذية فى عيد الاضحى من كل عام .

وصارت أمور المؤتمر خلال العام سيرا حسنا وكان الائتلاف يشمل الخريجين وروح الوحـــدة تغمرهم وهكذا سارت الامور حتى تقـــدم المؤتمر فى عام ١٩٤٢ بمذكرته المشهورة طالبـــا تقرير مصير الســـودان وبهـــذا يكون المؤتمر أول هيئة شـــعبية طالبت بالحرية والاســـتقلال

ولكن لم تلبث نوازع التحزب والتنافس ان دبت بين الصـــفوف وتفرقوا الى جماعات يتكتلون للسيطرة على هذه الادارة الوطنية الجديدة التى ظهرت على مسرح السياسة السودانية .

تعددت الاحزاب وتعددت الاهداف وقال القدر كلمته فى السودانيين فأختلفوا شيعا كل يناصر رأيه ، وكل يسير فى وجهة تخالف وجهة الآخرين

ولعبت المطامع أدواراً ســـافرة ســـاخرة .

وبقيت صفوة قليلة من الناس تؤمن بضرورة اتفـــاق السودانيين والعودة بهم الى حظيرة الحق والخير والتسامح والتساند علما بأن البلاد والمستعمر متربص بها الدوائر تحتاج الى هذه الوحدة .

ووقفت وسط هذا الهرج والاضطراب والتخبط تلعب بنفسى الحيرة ويعتصر قلبى الأسى ، حتى اتاح لى الله ان ألعب دورا فى تكتيل الاحزاب المعروفة آنذاك بالاحزاب الاتحادية ثم فى التقاء قيادتى الختمية والانصار مما سيجىء تفصيله فى موضعه من هذه المذكرات .

ذكريات السلك الإداري

كنت فى الدفعات الاولى من السـودانيين الذين اختيروا للعمل بالسلك الادارى فى وظيفة نائب مأمور . وكان تعيينى فى عـام ١٩٢١ حيث عينت بمديرية كسلا ، وذات يوم من عـام ١٩٢٣ (وكنت اذ ذاك بمركز القضارف) استدعانى المستر س.ب. براون مدير مديرية كسلا فذهبت اليه ، وعندما قابلته قال لى : لمعرفتى بك وباخـلاقك رأيت أن انقلك الى القاش لأكل اليك القيام بمهمة جد دقيقة فأستفسرته عن هذه المهمة فحدثنى بما يلى : ــ

قال : ان شركة القاش شركة انجليزية ومديرها هو المستر اسكويث أحد أبناء رؤساء الوزارات البريطانيـة ولما كانت هـذه الشركة شركة تجارية وتعمل من أجل الربح فربما عاملت الاهالى بغير الحق وربما قست عليهم وربما جرت من المسئولين فيهـا تصرفات لا تتفق مـع العـدالة والتقاليد المرعية ولما كانت هذه الشركة انجليزية ومديرها وكبار موظفيها من البريطانيين فان الاهالى قد يعتقدون ان الانجليز الحاكمين قد صنعوا معهم هذا الصنيع فتسوء سـمعة الحكومة الانجليزية بينما الحقيقة ان هؤلاء الموظفين البريطانيين لا يمتون للانجليز الحاكمين بصلة رسـمية ولا يتلقون الاوامر منهم وانما يتلقونها من رئاسة الشركة التى تحاول ان ترعى مصالحها وتستزيد من مكاسبها .

ولذلك فاننى أطلب منك ان تعمل فى القاش وتعامل رجال الشركة من البريطانيين كما تعـامل أى (خواجه) من الاغاريق أو غـيرهم من المدنيين . وأضاف بانه قد تفاهم على هـذه الخطة مع الحاكم العام ، وأعطـاه الحق فى التصرف فاجبته : اننى اقبل العمـل هناك وسأتبع السياسة التى رسمتها ولكننى اخشى ان أقوم باجراء فيجيئك الموظف البريطانى فتصدر أمرا بالغاء ما اتخذت من اجـراء أو محاكمه وقـد

لا اتحمل ذلك ولذلك فاننى اشترط ان تدعو هـؤلاء البريطانيين الذين يعملون فى شركة القاش لديك وتطلعهم على حقيقة موقفهم ... وانهـم لا يملكون من السلطان والنفوذ اكثر مما يملكه أى مدنى آخر وانهـم يخضعون لما يخضع له غيرهم ممن يزاولون التجارة أو الزراعة فى تلك المنطقة ، وبذلك اقدم على اداء واجبـاتى على بينة وثقة . فوعد بذلك وبالفعل قام بدعوة موظفى شركة القاش البريطانيين وتحـدث اليهم فى صراحة ووضوح .

والواقع ان المسـتر براون كان من الانجليز القلائل الذين عرفت فيهم روح الخير، والشعور بالمسئولية الادبية نحو من يحكمهم والارتفاع عن أوصار الاستبداد والغطرسة والجبروت .

لقد كان فى عبارة مختصرة انسانا يحس باحساس الآخرين ، ويتأثر بظروفهم ويحاول جهد طاقته ان يخفف عنهم عبء الحياة القاسـية التى يعيشونها ولو فى حدود .

وبعد تلك المحادثة مع المدير ، توجهت الى نقطة (المقـاودة) التى اتخذتهـا مركزا لى بالقاش واقمت فى كوخ من القش كما يقيم بقيـة الموظفين ورجال البوليس عازفا عن المنزل الفخم الذى قدمـه لى رجال شركة القاش أولئك الذين كانوا يسكنون فى قصور ذات حـدائق غناء ويستمتعون بحياة مترفه ويعيشون فى بذخ وارستقراطية .

وكان مفتش الزراعـة الممثل للشركة فى نقطة هدليـه ، انجليزياً متعجرفا يدعى هويلر .. وهو رجل ضخم الجسم مهيب الطلعـة غليظ السحنة يمثل فى دقة الصورة الخيالية المأثورة عن أى استعمارى فى بلد أفريقى بدائى .

لم يطل بى المقام هناك ، حتى هرع الى الشيخ محمد محمد الامين ترك رحمـه الله (ناظر عموم الهدندوة فيما بعد) وكان يعمـل فى ذلك الوقت شيخا من شيوخ الهدندوة ، وهو فى حالة من الاضطراب والسخط

تثير النفس وتهز المشاعر . وقد لاحظت بجبهته ضربة يسيل الدم منهـا تدل على انه قد اعتدى عليه . وقال لى : ان المستر هويلر قد ضربنى . فأرسلت فى الحال للمستر هويلر (ورقة حضور) كالاجراء المتبع فى مثل هذه الحالات . وعاد الى بعد هنيهة رجل البوليس الذى أرسلته بالورقة وقال لى : ان المستر هويلر رفض الحضور بحجة انه مشغول .

وعندئذ دعوت جنديين من جنـود البوليس وسلمتهما أمر قبض ثم طلبت منهما الذهاب والمجىء بالمستر هويلر فاذا امتنع اسـتعملا معه القوة (وأحضروه كرهاً) وبعد قليل جىء بالمستر هويلر مقبوضاً عليه .

وكان منظراً شهده له الاهالى المتجمهرون حول المكتب لأن مقام المستر هويلر فى ذلك الحين كان مقاما اسطوريا يشل فى اذهان المواطنين سطوة الحاكم الانجليزى ونفوذه وطغيـانه : والقبض عليـه بأمر من سـودانى مثلهم كان فيه تحطيم لوهم كبير ما كانوا يظنونه ممكنـاً .

ولم يكد يشل المستر هويلر أمامى حتى ألقيت عليه درساً فى طاعة الاوامر الحكومية وبينت له خطأه الفادح فى عـدم الحضور فى الحـال كما جاء فى ورقة الحضور وذكرت له فى وضـوح باننى قد اسـتعملت سلطة يخولها لى القانون .

وشعر الرجـل بحرج مركزه وأحس بالورطة التى وقع فيهـا . وتكاثرت حـولى الوساطات والرجاءات من البريطانيين والسـودانيين ولكننى لم آبه لها ومضيت فى تنفيذ القانون . وعينت موعداً للمحاكمة.

ويبدو ان الشيخ محمد محمد الامين ترك قد خشى من مغبة جرأته أو تأثر بالوساطات فجاءنى راغبا فى التنازل .

فقلت له : ان لا يستعجل وهدأت روعه ونصحته ان ينتظر حتى ينتهى التحقيـق ويثبت حقـه وله بعـد ذلك ان يتنازل عنهـا تنازلا يقدره المتهم .

وبعد ان قدرت أن المستر هويلر المتعـالى قد لقى الدرس الذى أردته وأن الاهالى قد أدركوا أن المستر هويلر ليس فوق القانون ... وبناء على تنازل الشيخ ووساطة الوسطاء وافقت على الصلح ، وأفهمت المستر هويلر بان البريطانيين الذين يعملون فى شركة القـاش يجب ان يفهموا انهم والاهالى سواسية أمام القانون ويجب عليهم الا يسيئوا للاهالى أو يظلموهم أو يتصرفوا معهم تصرفا غـير لائق . وكان لهـذا الحادث أثره فى عقول الموظفين البريطانيين وفى عقول الاهالى .

فى جبال النوبه

وفى عام ١٩٢٥ نقلت من كسلا الى جبال النوبة وقد اسعدنى ان ظفرت بثقة ابناء الجبال لاننى حرصت على معاملتهم على قـدم المساواة مع غيرهم من أبناء القبائل الاخرى . ولاننى نظرت الى ظروفهم الخاصة من الجهل والتأخر وقـدرتها ولاننى كنت دائم الاشفاق عليهم شـديد الحدب على الضعيف منهم والضال والمتعب امسح دموعهم ما استطعت واضمد جروحهـم ما امكن . ومن ذكرياتى بينهم ان جاءنى ذات يوم واحد من رجال البوليس وبلغنى ان أحد رجال البوليس قد لقى حتفه فى جبال أمبرى وان الجبل كله قد أصابه الهياج ، فاستعد رجاله بحرابهم وبنادقهم ووقفوا وقفة الحرب ... وان فتنة جسـيمة ربما وقعت وان دماء كثيرة ربما أريقت .

وقد ازعجنى النبأ لان رجال هذا الجبل كانوا قد تمردوا فى العام السابق ولكن لثقتى فى أبناء هـذه المنطقة ولانه لم تكن هنـاك دواع للثورة لم اصدق المبالغة التى نقل الى بها خبر مقتل رجل البوليس وقلت فى نفسى لا بد ان يكون ثمة باعث آخر لهذا الهياج .. وارتديت ملابسى مسرعا وركبت جوادى ... واتجهت نحو الجبل وأنا لا أحمل سـلاحاً غير عصاة اهش بها على الجواد ولا يتبعنى حرس ولا بوليس .

ومضيت حتى وقفت أمام جثة الجندى القتيل ولاحظت ان سكان

الجبل كلهم قد لجأوا الى كهوفهم خوفاً من انتقام الحكومة . فدعوت شيخ الجبل وعندما حضر طلبت اليه دعوة الرجل القاتل وامنته على نفسه وانى سأكون عادلا معه .

وكنت اعتمد على ان النوبى لا يكذب وانه سوف يقول الحقيقة مهما تكن مريرة ... واطمأن أبناء النوبة الذين حضروا مقابلتى للشيخ وأنا اعزل دون حراسة أو سلاح وشعروا باننى رجل سلام . فزال عنهم الروع وهدأت نفوسهم وجاءوا بالرجل القاتل .

وقلت له فى ثبات أوحته دقة الموقف . اننى لن اصيبك بضرر وسأكون عادلا معك فتحدث بما وقع فاجاب بان الجندى جاء للشيخ وطلب دجاجة ورضخ الشيخ لطلبه ثم ذهب الى الحلة واستلب احدى دجاجاتى فى غيبتى واعطاها للجندى .

وعندما عدت وافضت الى زوجتى بالنبأ هرعت الى الشيخ وسألته لم أخذ الدجاجة ؟ فأطلعنى على الحقيقة وان الدجاجات الآن فى بطن الجندى طعاما شهيا . وعبرت عن استيائى — وشعر الجندى بهذا الاستياء فصوب بندقيته نحوى . ولم يكن ثمة بد وهو يهم بقتلى الا ان ارسل نحوه حربتى ، فاردته قتيلا ولو لم اقتله لقتلنى .

قلت للرجل اذا كان ما ذكرت صحيحا وانك لم تفعل غير ان دافعت عن نفسك فلن تتعرض لما تخشى .

واصطحبته معى الى المدينة فلم يعترض أحد لعلمهم باننى لا اكذب واننى سأكون عند حسن ظنهم .

ثم قدم القاتل للمحاكمة ونظرت قضيته وبرىء على أساس انه كان فى حالة الدفاع عن النفس .

واذكر اننى فيما كنت فى طريقى عائدا من محل الحادث الى دلامى قابلتنى أفواج من أبناء الجبال الاخرى من النوبة وهم يحملون أسلحتهم .

وعندما سألتهم عما أصابهم : اجابوا اننا سمعنا ان النوبة فى جبال أمبرى ثاروا عليك وقتلوا (العسكرى بتاعك) ولذلك فقد اقبلنا لنصرتك .

وسرنى هذا الشعور الكريم ثم شكرتهم وصرفتهم فى هدوء .

ولم يرق للانجليز ما وجدته من ثقة بين أبناء النوبة فقد كانوا يريدون هذه الثقة لانفسهم دون غيرهم . اذ قال لى أحدهم النوبه يحبوك كثيرا ولو قلت لهم ان يهاجموا معك مدينة الرهد أو الأبيض لفعلوا وضحكت وعلمت ما يقصد .

وسرعان ما نقلت من هناك . ولكننى حمدت الله اذ تركت أثرا ربما استفاد منه اخوانى من بعدى وكان نقلى الى مدرسة البوليس محاضرا فى القانون .

ذكريات القضاء

كان عملى بمدرسة البوليس نهاية عملى بالسلك الادارى ، وفى المدة التى قضيتها بالادارة (من عام ١٩٢١ الى عام ١٩٣١) أتيحت لى الفرصة للتوسع فى دراسة القانون وزاولت الاعمال القضائية فى الحدود المخولة للاداريين كنائب مأمور ثم كمأمور وخرجت من تجاربى فى الادارة بمحصول مفيد .

وفى عام ١٩٣١ نقلت الى السلك القضائى اذ عينت قاضيا جزئيا وأسند الى عمل اضافى هو رئاسة قلم الترجمة ، خلفا للسيد خليل الخورى وهو سورى وكان عمله ان يترجم القوانين من اللغة الانجليزية (التى وضعت بها) الى اللغة العربنة وعند ما أوشك على بلوغ السن القانونية ، والاحالة على المعاش ادخل فى رؤوس البريطانيين ان يعهد هذا المنصب لغير السودانيين بحجة أن هؤلاء غير اكفاء فى هذا المضمار . غير انخليل الخورى نفسه لم يكن من هذا الرأى . لقد كان ظنه فىَ السودانيين حسنا . وبعد لأى عاد الانجليز فقرروا ان يجربوا سودانيا فى هذا المنصب على سبيل التجربة فاذا لم يصلح طلبوا أجنبيا لمثله . فوقع الاختيار عليّ ... وقد كنت فى ذلك الوقت اعمل مأمورا ومحاضرا بمدرسة البوليس بأمدرمان (خلفاً للمحاضر السورى جاد غاوى)

ونقلت من مدرسة البوليس الى المصلحة القضائية فى منصب القاضى الجزئى ومسئولا عن قلم الترجمة على سبيل التجربة حسب ما اشرت لمدة سنتين .

وفى فترة ستة أشهر ابلغ ذلك السورى الامين (خليل الخورى)

السكرتير القضائى بان التجربة دلت على اننى كفء للقيام بالترجمة القضائية ... واننى لست أقل منه هو شخصيا أو من غيره ممن يؤدون هذه المهمة .

وظللت فى هذا المنصب الى عام ١٩٤٥ حيث قضت الظروف ان يؤول الى احد المصريين (خليل سالم) تنفيذا للاتفاقية المصرية البريطانية (١٩٣٦) التى كانت تقضى باسناد المناصب التى لا يستطيع ملأها السودانيون بانجليز أو مصريين .

والمصريون فى هذه الواقعة انما كانوا مضللين ... وكانوا من الضعف بحيث قبلوا هذا التضليل ، لأن تلك الوظيفة لم تكن مماينطبق عليه نص الاتفاقية .

وكانت الحكومة الانجليزية لا ترحب بوجود المصريين فى المناصب ذات الاتصال المباشر بالشعب ... ولما كان منصب رئيس قلم الترجمة من المناصب المنعزلة عن الشعب ينحصر شاغله داخل جدران أربع ، فقد آثروه على غيره ... رغم أن شاغله كان سودانيا وان هناك سودانيين اكفاء دائما يستطيعون ملأه . ان هذه احدى الهنات التى اسجلها للبريطانيين .

ولم يخف المستر جورمان السكرتير القضائى وهو يخطرنى باخلاء مسئوليتى من هذا المنصب بالحقيقة كاملة ... مع ابداء أسفه .

واستمر عملى فى سلك القضاء حتى عام ١٩٤٦ بعد ان بلغت وظيفة قاضى المحكمة العليا كأول منصب تقلده سودانى وفى نهاية عام ١٩٥٢ ختمت حياتى فى هذا السلك بالاحالة على المعاش .

وكانت الفترة التى امضيتها فى القضاء من الفترات المشحونة بالمسئوليات الدقيقة الجسام .

فان مشاكل الافراد ثم العدل بينهم والوصول الى حكم يرضى الضمير أمر يحتاج من الانسان الى كل طاقاته والى كل أعصابه .

لقد كان غاية جهدى ان القى الله يوم القيامة وقد أديت واجبى تماما وارضيت الحق ولم اظلم أحدا .

وكنت وانا اطبق القانون اراعى فى دقة وحذر ان يطابق ما سنه الانسان ما حكم به الله خصوصا فى جرائم القتل فلم احكم بالاعدام على شخص ما دون ان أرجع فى هذا الحكم الى نصوص الشريعة الاسلامية حتى اذا ما ثبت القتل العمد حسب الشريعة الاسلامية حكمت بالاعدام ثم اعلنته ولا يهمنى بعد ان صادق عليه الحاكم العام عن طريق رئيس القضاء أو لم يصادق .

تمسكت بهذا المنهاج تمسكا تاما ولم اخرج عليه قط وكان الله ناصرى وقد ذكرت (حكم الاعدام) بالذات لان الروح — أى روح — وديعة غالية وما يمكن التجاوز فيه فى أمور الحياة على اختلافها اجتهادا أو تقديراً أو اتباعا لعرف أو تقليد لا يمكن التجاوز فيه فيما يتعلق بالروح .

الحكم بالقرائن

القاعدة عند الكثيرين من القضاة ان القرائن فى حالة القتل تدين ولكن لا يصدر فيها الحكم بالاعدام ، غير انى وقد اتخذت المنهاج الواضح الذى يقربنى من الله كما ذكرت آنفا تصرفت فى بعض قضايا بوحى من ضميرى ، رغم عدم اعتراف القاتل وقضيت فيها بالاعدام ، مخالفا بذلك القاعدة المتعارفة .

ومن بين هذه القضايا قضية حكمت فيها بالاعدام مستندا على القرائن المحكمة الحلقات لان مثل هذه الشهادة لا تكذب وقد تكذب شهادة العين وبعد ان جرى التنفيذ فيها فى السجن العمومى ببورتسودان تحدث الىّ ضابط السجن يوم ذاك السيد الصادق محمد الطيب هاشم واخبرنى ان القاتل رغم انكاره المستمر فانه لما اريد شنقه ، وجاءت اخته لمقابلته وكانت تبكى ، طلب اليها أن تكف عن البكاء ثم خاطبها قائلا : —

أنا عندما ذبحته كنت عارفا انهم سيقتلوننى .

وبذلك توج هذا الاعتراف النهائى الحكم الذى أصدرته مستهديا بالقرائن وما كنت أشعر به شخصيا وأنا افحص وقائع القضية واتتبع مجرياتها .

الحكم أجل

وحدث ان حكمت على قاتل فى مديرية كردفان بالاعدام مستندا الى قرائن الاحوال وكنت مرتاح الضمير الى انه هو القاتل المتعمد .

ولكن الاستئناف لم يؤيد هذا الحكم وبرأه بحجة ان هناك قليلا من الشك ينبغى ان يعطى لصالح المتهم .

ودعوت المتهم عند صدور الحكم بالبراءة وهنأته ثم اطلقت سراحه . غير اننى كنت مطمئنا الى انه هو القاتل ، فكتبت فى محضر القضية ما يلى :ــ

ان العقاب عاجل وآجل وهذا فى نظرى مما اجله الله ليوم الحساب وحفظ الملف .

وبعد مضى شهر من براءة المتهم جاء الىَّ واعترف أمامى بانه هو القاتل . وسرد ظروف قتله كما سجلتها فى محضر أسباب الادانه .

وأرسلت الملف واعتراف الرجل الى السيد رئيس القضاء يوم ذاك وما كتبته بمحضر القضية فرد علىَّ بقوله : ما عندى ما أزيده على ما ذكرته أنت فى ان العقاب فى هذه القضية آجل .

أما البراءة فكانت رغم اعتراف المتهم قائمة لانه بحسب القانون لا تجوز محاكمة متهم فى قضية واحدة مرتين فترك القاتل لعقاب ضميره وهو أشد وأمر .

محاكمة انجليزى بالجلد

وكنت قاضى مركز بورتسودان وجىء ببحار انجليزى اقترف جريمة السرقة وثبتت التهمة عليه .

وقد رأيت ان سجنه والباخرة على أهبة السفر قد يلقى العقوبة على غيره وهم أصحاب الباخرة ، والغرامة لا تجوز فى السرقة . وكان عمره يبيح حسب القانون استعمال الجلد فحكمت بجلده ونفذ أمامى .

وكان لهذا الحكم صدى استحسان بعيد بين المواطنين ولكنه من ناحية أخرى أدى الى امتعاض البريطانيين .

لقد نظرت الى الجلد من زاوية بينما نظـر اليه كل من الوطنيين والانجليز من زاوية مخالفة .

وقاطعنى الانجليز عاماً كامـلا . لقـد أحسوا بان كرامة الجنس الانجليزى قد مست فكان يقابلنى منهم من يقابلنى بوجه عابس حتى رئيس القضاء وكنت بلا شك اقابلهم بالمثـل ـ اقول فى نفسى مناجياً المولى سبحانه وتعالى بقول القائل :

فليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العـالمين خراب

ولو فطنوا الى اننى لا احمل فى احكامى غير سـلاح العـدالة وضميرا يخشى الله واننى لا أنظر الى المتهمين أمامى باجناسهم أو أديانهم أو ألوانهم أو اقدارهم وانما أنظر الى أعمالهم ، واحكم بما يستحقه كل حسب نصوص القانون ... لاستصغروا من الامر ما استعظموا . ولو لم يركبوا رؤوسهم ويتعنتوا فى الفهم والتقدير لـكان خيرا لهم ، ولا أسف على غضبهم فقد كنت الرابح على كل حال .

وفى عـام ١٩٤٤ وكنت قاضيا لمحكمة أمدرمان الجزئيـة رفعت أمرأة قضية على أخرى مدعية انها أودعتها مصاغا من الذهب دون أجر وعندما طلبته منها لم ترده لها مدعية ان المصـاغ قد سرق منها فى يوم حددته وعينته .

وعند نظر القضية اعترفت المتهمة بانها فعلا تسلمت المصاغ من الشاكية ولـكنه سرق منها واستشهدت برجـل البوليس الذى أبلغته بالحادث فى حينه وقـدم البولس محضر تحرياته للمحكمة ذاكـرا انه

لم يهتد الى شيء يؤيد البلاغ أو يلقى ضـوءاً عليه وان القاضى أمره بحفظ الاوراق .

وبما أن الامانة كانت بغير أجر كان على الشـاكية ان تثبت ان المتهمـة لم تتخذ الاحتياط العـادى فى حفظ الامانة بل أهملته ولكن بالاطـلاع على محضر البوليس وشـهادة الشـهود وأقوال الشاكية رأيت انه بما ان المتهمة قـد ادعت ان المصـاغ قـد سرق منهـا فى وقت معين فطلبت منها ان تدلى بما يثبت على الاقل احتمال حـدوث السرقة ولما لم أقتنع بما ادلت به المتهمة من شهادة قررت ادانتها وأنا مرتاح الضـمير هادىء البال . ولكننى نصـحت الشاكية أن تستأنف الحكم لدى محكمة الاستئناف لان ذلك يزيدنى ايمانا بحكمى أو برفعه عن عاتقى .

ولكن الشاكية قالت ان ليس لديها رسوم الاستئناف فأعطيتها من جيبى الخاص ولكن يبدو انها لم تقدم الاستئناف وبعد مضى المدة القانونية جاءتنى المحكوم لهـا تطلب التنفيذ على المتهمة وأمرت بذلك ولـكن محضر المحكمة كان عاد ليقول لى ان المتهمة معدمة وانه ليس لديهـا ما يحجز عليه . وعندما أبلغت المحكوم لها بذلك قالت لى ان المحكوم عليها تتردد على دكان تاجر هندى بالسوق وربما كان لديها مال عنده . وكتبت خطابا للتاجر الهندى أطلب فيه أن يورد للمحكمة أى مال لديه للمحكوم عليها .

وبعد مضى يومين جاءنى التاجر الهندى ليقول لى .. ان المحكوم عليها لا تضع عنده أى مال ولكنها وضعت لديه هذه الشنطه (وقدمها للمحكمة) وعند فتحها وجدنا بداخلها مصاغا تعرفت عليه الشاكية فورا وقالت انه مصاغها الضائع . وفى الحال أصيبت المحكوم عليها بالذهول واعترفت بالجريمة . وقست برد ذهب الشاكية اليها كما احلت المحكوم عليها لتحاكم أمام محكمة جنائية بتهمة خيانة الامانة ... فسجدت لله شاكرا الذى ألهمنى الصواب .

وعندما كنت قاضيا فى أمدرمان أيضا حكمت على أمرأة بالسجن لانها كانت تصنع (العرقى) وكان السجن لا الغرامة هو الحكم الذى أصدره عادة على صانعى العرقى والتجار الذين يبيعون فى السوق السوداء بأسعار أعلى من المقررة لاعتقادى ان استفادة الحكومة بالغرامة من أى من الجانبين فيه مشاركة ولو بطريق غير مباشر ـ فى الاثم .

وذهبت تلك المرأة الى المفتش واستعطفته ... وأثارت شفقته .. فاستجاب لها وأمر باطلاق سراحها ... ثم أرسل الىَّ ملاحظ البوليس فى ذلك الوقت وهو السيد محمد خليل بتيك (محافظ الخرطوم الآن) . يبلغنى رجاء المفتش ان أبدل حكم السجن بالغرامة .

فقلت للملاحظ أين هى المرأة الآن ؟

فأجابنى بأن المفتش أطلق سراحها واستأت لهذا التصرف استياء شديدا وسلمت الملاحظ فى الحال أمرا موقعا عليه منى موجها له يقضى بالقبض على المرأة واعادتها الى السجن فوراً .

ونفذ الملاحظ الامر فى الحال . ولم يكد يبلغ المفتش النبأ حتى ثار واهتاج . وتناقلت المدينة النبأ (بأن الدرديرى كسر حكم المفتش) وما دروا ان المفتش هو الذى حاول أن يكسر حكمى

وشعرت ان الانجليز ربما حاولوا نصرة المفتش عن طريق قاضى المحكمة العليا وهو انجليزى ـ اذ ان لهذا القاضى الحق عند الاستئناف فى استبدال السجن بالغرامة ولهذا السبب ونظرا للظروف التى احاطت بالقضية مما قد يؤدى للنقص من مقام القضاء فقد اتصلت بقاضى المحكمة العليا تليفونيا وفصلت له الحقائق والملابسات ، وقلت له فى صراحة تامة بأن تدخل المفتش فيه استهانة بالحكم القضائى الذى أصدرته وسأجد نفسى نتيجة لهذا الوضع مضطراً للاستقالة اذا استبدل الاستئناف حكم السجن بالغرامة .

واستأنفت المرأة ولـكن قاضى المحكمة العليـا أيد حكم السجن الذى أصدرته وكفى الله المؤمنين القتال •

ولعل مفتش المركز قد بلغته الاشـاعة التى تداولتها الالسـن فى أمدرمان عن وقوع الخلاف بينى وبينه أو أوحى اليه قومه ان يمحو أثر هذه الاشاعة ••• فجاءنى فى المحكمة فى وقت مبكر وقال لى : انك سبق ان طلبت أرضا لمدرسة الرشاد ، فهل وجدتها ؟ فلما أجبته بالنفى قال لى: تعال اذن نذهب سويا ونفتش على أرض تصلح للمدرسة وركبت معه فى المقعد الامامى لسيارته ••• وكان يتولى قيادتها بنفسه ••• وطاف بى فى كل منطقة السوق وما حولها حتى وصلنا موقعا صادق عليـه وهو الموقع الذى تقيم عليه مدرسة الرشاد الآن •

وعاد بى المفتش الى المحكمة ودخل معى القاعة ــ وشكرته على قطعة الارض ثم انصرف وكانت لفته بارعة منه كفلت ازالة الاشاعة تماما من ناحية ، ولكنها من ناحية أخرى كفلت أيضا لمدرسة الرشـاد قطعة أرض صالحة •

العمل الوطني في قيود الوظيفة

انتهى عملى فى السلك القضائى فى نهاية عام ١٩٥١ وبذلك تحللت من قيودى كموظف تمنعه القوانين السارية من العمل السياسى السافر ، ولـكن كان من حسن حظى ان اتيحت لى الظروف ان اؤدى لبـلادى (وأنا موظف) ما يصح أن يدرج فى باب العمل السـياسى اذ كانت له نتائج سياسية فيما بعد . كان هذا العمل المفيد فى نطاق الوفود واللجان الرسمية التى اشتركت فيها مع مواطنين لا ادعى لنفسى فضلا على أحدهم أو حقا اكثر من حقه فى الاعتزاز بما أديناه لبلادنا فى ذلك المجال .

وكانت البداية متواضعة وليست أكثر من خطاب ، قد يكون عاديا الآن ولكنه لم يكن كذلك فى زمنه .

ففى عام ١٩٣٧ كنت ضمن الوفد الذى اختارته الحكومة من كبار الموظفين والاعيان ليسافر الى لندن لحضور احتفالات تتويج الملكجورج السادس ملك بريطانيا .

وكان الوفد مكونا من السادة محمد عثمان الميرغنى وصديق المهدى وعبد الماجد احمد ، الدرديرى نقد وعبد الرحمن عبدون ومحمد صالح الشنقيطى والاميرالاى عبدالله خليل ، والشيخ أبشر حميده وشخصى .

وعند عودتنا تصادف أن أبحرنا على نفس الباخرة (كوثر) التى تقل الوفد المصرى برئاسة النحاس باشا فى عودتهم من منتريه ، بعد ان فرغوا من توقيع اتفاقية مصرية انجليزية حول المحاكم المختلطة .

وقد رحب بنا الوفد ترحيبا حارا ، وانزلونا فى ضيافتهم على الباخرة من جنوا الى مصر .

وفى القاهرة احتفى بنا اخواننا المصريون يتقدمهم طيب الذكر عمر

طوسون باشا واقيمت من أجلنا حفلة تكريم كبرى وقد انابنى أعضاء الوفد السودانى فى القاء كلمة نيابة عنهم . قلت فيها بعد ان شكرت مصر حكومة وشعبا : « ليس للعاجز عن اداء الجميل الا الدعاء ، فاللهم يا من ربطت بيننا بأقوى أواصر القربى دما ودينا ولغة ونيلا ، تول جزاءهم عنا ، وأتمم عليهم نعمتك وهيىء لنا من أمرنا رشدا » ، وختمتها بقولى « والى اللقاء فى ميدان العمل المنتج لمصلحة القطرين الشقيقين » .

وأحدث هذا الخطاب رغم ايجازه ضجة فى مصر والسودان .

أما فى مصر فقد وجد استحسانا وقبولا وعلقت عليه الصحف وتناولته الالسن بالتقليب .

أما فى السودان فلقد وجد من الانجليز غضبا كظيما شهدت اثاره عند عودتى . ولعل مبعث الغضب عند الانجليز هو ما فهموه باننى ادعو لوحدة الجهاد بين السودانيين والمصريين والقيام بعمل وطنى مشترك لتوحيد القطرين .

والواقع انه لا المصريون ولا الانجليز فهموا المعنى الحقيقى المقصود من خطابى ، اذ اننى كنت ارمى ان يهيىء الله للمصريين اتمام استقلالهم ، كما يهيىء لنا نحن الحصول على هذا الاستقلال ، والحمد لله المستجيب .

لجنة دستور الجمعية التشريعية

كنت أحد أعضاء اللجنة التى عينت لوضع مشروع دستور الجمعية التشريعية ، وقد قبلت ذلك التعيين بأمل الحصول للبلاد على أقصى ما يمكن . ولهذا فقد كانت لى اقتراحات كثيرة لم يؤخذ بها وكانت لى عدة اعتراضات على ما اجازته الاغلبية . وليست هناك حاجة للاشارة الى ان من كانت هذه موافقة فى وضع المشروع ، لا يمكن ان يكون راضيا عنه حينما نفذ بغير الاوضاع التى كان يودها لبلاده ، وهكذا كان موقفى الطبيعى فى جانب المعارضة التى اشتدت عليه عند تنفيذه من كل

مكان • فأراد السكرتير الادارى السير روبرتسون ان يقلل من قيمة المعارضة ويطعنها بانها تظهر للناس فى العلن غير ما أبدته فى داخل الحجرات منذ التشريع فانتهز فرصة حديثه مع أحد الصحف وأدلى اليها بتصريح قال فيه ان بعض المعارضين فى تنفيذ المشروع سبق ان اشتركوا فى وضعه ووافقوا عليه •

وقد نشرت جريدة صوت السودان تلميحات سير جميس وقالت : « ولما كنا نعلم ان من بين الذين يعينهم السكرتير الادارى الاستاذ الدرديرى محمد عثمان فقد أرسلنا نستفسره رأيه فى هذا القول وعما اذا كان موافقا على القانون بوضعه الحالى ؟ فارسل الينا سيادته الاجابة التالية : —

« كلا لم اكن موافقا على ذلك القانون بل بالعكس قد سجلت كل اعتراضاتى عليه ، وتجدونها مدونة فى الكتيب الذى نشره مكتب السكرتير الادارى نفسه واليك أمثلة مستمدة من الكتيب الرسمى المذكور •

أنظر المادة (٥) فقره (٢) تجد اعتراضا مدونا به كالآتى (يقول العضو المخالف للاكثرية) الذى هو انا يجب ان يكون التصديق النهائى للميزانية بيد المجلس •

ثم أنظر الى المادة (٨) التى اعترضت فيها على مبدأ التعيين وقلت بضرورة اجراء الانتخابات الحرة ، وذكرت صراحة ما نصه « ان الحاكم العام بتعيينه أعضاء للجمعية قد يتهم بانه يريد بذلك التعيين ان يرجح كفة حزب معين لم تكن له أغلبية وذلك علاوة على أن التعيين يتنافى ومبدأ الانتخابات الحرة التى يجب أن تكون » • وقلت « ان شعور الناس نحو ذلك التعيين سوف يهدم المشروع كله »

ثم أنظر المادة (١٨) حيث عارضت ذلك التكوين وسجلت مانصه : « يجب ان يكون الاعضاء المنتخبون أغلبية مطلقة على الاعضاء بحكم وظائفهم » •

وقد اقترحت أيضا ـ وان لم يدون ذلك الاقتراح ـ ان يكون أساس توزيع عدد الاعضاء الممثلين للمديريات على نسبة أعلى بكثير ، للتعليم لا لعدد السكان حتى يتسنى وجود أعضاء صالحين للتشريع •

هذه بعض اعتراضاتى التى دونت باسم (العضو المخالف للاكثرية) لا باسمى الشخصى تجنبا للأنانية • ولكنى وقـد سئلت لم أر مفرا من اعلانها ونسبتها الى صاحبها بالاسم • ولعلكم تعتقدون بعد معرفتها ان هـذا هو اقصى ما يستطيعه فرد وقف وحـده الى جانب رغم وقوف الاكثرية فى الجانب الآخر » •

وانكشف القناع بعد نشر هـذه الاجابة الواضـحة • ولم يعد للاشاعات والتحريضات من مجال ولم يستطع السكرتير الادارى جوابا •

لجنة الجنوب

وفى سـنة ١٩٤٥ كونت الحكومة (لجنة الجنوب) من حضرات السادة مكى عباس ونصر الحاج على والمرحـوم محمد عثمان ميرغنى والدرديرى محمد عثمان •

وكانت مهمتنا وضع تقرير عن الجنوب •

فزرنا الجنوب مركزا مركزا ومدرسة مدرسة ، داخـل الاحراش وخارج الاحراش ووضعنا تقريرا شاملا ضافيا ، وصفنا فيه ما هو حادث بالجنوب بصراحة تامة وبالاخص أعمال المبشرين هنـاك وقدمنا التقرير لمكتب السكرتير الادارى فلم يشأ سـير جيمس روبرتسون السكرتير الادارى آنذاك نشره وقال انه ورقة اتهـام للحكومة وليس بتقـرير وأذكر أن وجدنا فى مدرسة لوكا الوسطى بالاستوائية تلاميذ جنوبيين ممتلئين حماسا وحبا للاتصال باخوانهم الشـماليين فلما تحدثنا اليهم قالوا لنـا : ـ

ماذا تريدون ؟ قلنا جئنا للتعرف بكم والاخذ بأيديكم •

قال لنـــا بعضهم بعد ان تنحى بنا عن المفتش الانجليزى المســتر كين جانبا : خذوا وانظروا ــ واطلعنا على كراسة مرسوم بها شــجرة كبيرة ــ ثم أشار الى شجرة أمام المدرسة وقال : هذه هى وبها مدرسة وكنيسة وقال ان هذه الشجرة كما قال لنـــا الانجليز هى السجن الذى كان يحجز تحته آباؤنا المسترقون الذين كان يأخـــذهم الزبير باشـــا وكركساوى لبيعهم فى الشمال . أما الآن ففيها مدرسة وكنيسة .

ثم قال لنـــا أولئك الجنوبيون وقد قلنا للانجليز ليت الشــماليين أخـــذونا كلنا لانهم ألبسوا الذين أخـــذوا من ابائنا الملابس وعلموهم أما انتم فقد حبستمونا هنا كحديقة الحيوانات حفاة عراة تتفرجون علينا انتم وزواركم !

ومما يستحق الذكر اننى أطلعت من قبـــل لما كنت مأمورا بجبال النوبه على كتاب صــغير مكتوب بالانجليزية موجــه لرئاسة منظمات التبشير بلندن يتهم فيـــه سكرتير عام المبشرين بالســـودان ، حكومة الســـودان بانهـــا تعرقل ســـير التبشير فى الجنوب واستدل على ذلك بأمور ثلاثة : ــ

أولا : ــ ان الانجليز يرســـلون الى الجنوب مآمير (حـــكاما) سودانيين وهؤلاء مسلمون وبطبيعة وضعهم يتصلون بالجنوبيين، ويفهم الجنوبيون ان الاسلام هو صاحب السلطان فى البلاد .

ثانيا : يصرحون للتجار (الجـــلابة) بان يدخلوا الجنوب ويأتى كل واحد يحمل شنطتين (خرج) مقرونتين احدها مملوءة بدنياه والاخرى بدينه ... يفرشـــون تجارتهم فى النهـــار ويختلطون بالجنوبيين يبيعون ويشترون وفى الليل يفرشـــون دينهم فيقيموا الاذكار ويقف حـــولهم الجنوبيون ويعطونهم الشاى والأكل .

ثالثا : يأتى للاجازة أولئك الذين بيعوا فى الشمال من الجنوبيين وتجندوا بالجيش يختلطون باخوانهم ويقيمون الاذكار خاصـــة اذكار

(الختمية) ويهدمون فى اجازاتهم القصيرة ما بنيناه فى أعوام .
وعلى هذا قد قفل الانجليز الجنوب أثر هذه الشكوى وأصبحت المديريات الثلاثة لا تدخل الا بتصريح .

ومن هنا يتضح ان قفل الجنوب لم يكن لمصلحة الجنوبيين وانما لمصلحة المبشرين واستجابة لشكوى المبشرين فى السودان للحكومة البريطانية فى لندن .

لجنة الدستور

وفى عام ١٩٥٣ عينت عضوا فى لجنة استانلى بيكر قاضى المحكمة العليا يومذاك لتعديل دستور الحكم الذاتى ممثلا للجبهة الوطنية ...
وكانت وجهة نظرى فى قبول عضوية هذه اللجنة هى ان نعمل على وضع دستور صالح فان لم نستطع اعتزلناها وان شاء الله هدمناه ولم يكن مذهبى هو عدم الاشتراك مع المستعمر فى أى عمل ولو جاء مبرأ من كل عيب .

وكانت اللجنة مكونة من ممثلين لحزب الامة والحزب الجمهورى الاشتراكى والجبهة الوطنية والمستر هكسوبرت ممثل السكرتير الادارى .
ولم يكن للمستر استنلى بيكر أو المستر هكسوبرث صوت فى اللجنة .
فلما اجتمعنا اخترنا لجنة فرعية باسم لجنة تنقيح الدستور من السادة محمد احمد محجوب ، عبد الرحمن على طه ، عبد الماجد احمد ، محمد احمد أبو سن وشخصى .

وجاءت لحظة حاسمة ثار فيها خلاف حاد بين اعضاء اللجنة .

ذلك اننى رأيت خلال النقاش ان الغاء مصر لمعاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى ١٨٩٨ — ١٨٩٩ قد انهى الحكم الثنائى قانونا فلم يبق الا اعلان انهاء هذا الحكم والبدء فى اتخاذ الاجراءات لاستقلال السودان استقلالا تاما ، كأن تحل لجنة دولية محل رأس الدولة لمدة قصيرة يقرر بعدها السودانيون مصيرهم . وقلت ان من مصلحة

السودانيين استغلال هذه الفرصة الذهبية ليفسروا الالغاء من جانب مصر لمصلحتهم ولا يلتزمون بما ربطت به مصر الالغاء من اتحاد بين القطرين ، والمناداة بالملك فاروق ملكا على مصر والسودان . وان يعتبر الحكم الثنائى منتهيا وبذلك لا يكون الحاكم العام ممثلا لمصر أو لبريطانيا أو لكليهما وانما هو (حاكم بواقع الحال) الى ان تفرغ اللجنة الدولية التى اقترحتها من اداء مهمتها .

وكان بعض الاعضاء يرون الاعتماد على وعود بريطانيا فى منح السودان الاستقلال ولكنى دفعت هذا الرأى بأنه ليس فى يد بريطانيا من الناحية القانونية ان تعطى السودانيين استقلالهم تمشيا مع المبدأ القائل (فاقد الشيء لا يعطيه) .

ورفض الجانب الانجليزى فى اللجنة الاخذ بهذا التفسير بحجة ان الغاء الاتفاقيات كان من طرف واحد ولن تتقيد به بريطانيا . وكان واضحا ان البريطانيين سوف لا يقبلون هذا التفسير لان فى قبوله تأثيرا على وضعهم فى قنال السويس ذلك الوضع المستمد من معاهدة ١٩٣٦ التى ألغاها المصريون وحدهم .

واصررت على موقفى اصرارا تاما ... وعندما وجدت ان كل بقية الاعضاء لم يروا رأيى لم أجد مناصا من الانسحاب من اللجنة وفى أثناء تعطيل اللجنة جاءنى رسول من قبل المستر روبرت هاو الحاكم العام للسودان آنذاك يدعوننى للاجتماع به فحددنا ميعادا ثم قابلته وقد بينت له فى هذا الاجتماع وجهة نظرى بكل صراحة ووضوح .

ولم يرض سير روبرت عن موقفى وحاول ان يثنينى عنه ولكننى رفضت التزحزح قيد شعرة . ولما هممت بالانصراف سألنى وهل من رأيك أيضا ان نوقع على هذه الاتفاقية الخاصة بكم التى اقترحها المصريون لتقرير مصيركم فقلت نعم يجب ان توقعوا عليها دون تردد قال لماذا قلت لسبب واحد بسيط وهو انكم لما كانت مشكلة السودان مطروحة أمام هيئة الامم فى امريكا بليك سكس وكان النقراشى باشا

يتكلم عن علاقة السودان بمصر ذاكرا حق الفتح ورابطة التاج الملكى المصرى وقف مندوبكم الدائم السير الاسكندر كادوجان وقال ان للسودانيين وحدهم حق تقرير مصيرهم بمحض ارادتهم فصفق له الحاضرون المحبون للحرية والسلام ونهض مندوب روسيا ليصافح مندوبكم لاول مرة على هذا القول السليم والآن ان لم توافقوا على هذه الاتفاقية فماذا يكون موقفكم أمام العالم اجمع فسكت الحاكم العام قليلا ثم ودعته وانصرفت . وبعد فترة كان يزورنى فى كل يوم بعض من اخواننا السودانيين وغيرهم لاقناعى بالتراجع ولكن دون جدوى .

وأخيرا دعيت لجنة تعديل الدستور بكاملها للاجتماع وحضرت هذا الاجتماع وشرحت وجهة نظرى من جديد ، واعلنت وقوفى عندها وبعد نقاش صاخب طرح رأيى للتصويت فأيدته الاغلبية . وطلب بعض الاعضاء تأجيل الاجتماع ولكن الاغلبية رفضت ... وانفضت اللجنة وتحطم الدستور المقترح . ولا يدرى الا الله ماذا كان يكون مصيرنا الآن لو لم يحطم ذلك الدستور واكتفى السودانيون بالحكم الذاتى تحت النفوذ الانجليزى (فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا نهتدى لولا ان هدانا الله) .

قتل طفلى

وتعليقاً على هذه الخاتمة قال المستر هوكسوبرت عبارته المشهورة . « لقد قتل الدرديرى طفلى » ويعنى بالطفل الدستور المقترح .

وانى حينما أثبت هنا هذه الحقيقة لا أريد من وراء هذا الاثبات النفع الشخصى وانما تقرير واقع تاريخى تعززه السجلات الرسمية .

والتاريخ أمانة فى أعناقنا ... ومن حق الاجيال المقبلة ان تتلقى أنباءه سليمة ولست بالذى ينسى ، ان أى كلمة أدلى بها فى هذه المذكرات سأكون مسئولا عنها أمام الله .

فى مجلس جامعة الخرطوم

منذ ان تأسست جامعة الخرطوم وانا عضو بمجلسها ، ثم عضو في لجنتها الدائمة الى ان انقضت عضويتى فى الهيئتين تلقائيا بتعيينى عضوا فى مجلس السيادة .

لقد كانت لى فى شئون التعليم الجامعى مواقف كثيرة أنا راضى عنها .. ولكن موقفا واحدا كان له فى نفسى مكانة اسمى . ذلك هو موقفى من سياسة أخذ الطلبة للجامعة .

وعند ما اقول موقفا لا اعنى به موقفا من مواقف الصراخ والزئير . أو لونا من ألوان هذه البطولات التى يسودها البطش والجبروت أو حادثا خرج للصحف والاذاعات أو دور النشر فهز المقاعد من تحت أصحابها ... فتلك حالات لا أميل اليها فانا بطبعى عدو الضجة والانفعالات وأعمال العنف والديماجوجية ... أحب ان اعالج اخطر المشاكل فى هدوء الواثق المطمئن ... ولو امكن مع حسن النتائج الا يسمعها القريب منى فعلت ذلك .

ولو لم يكن هذا الموقف يتصل بموضوع عام يهم تسجيله للتاريخ، ولكى يعرف الخلف ما فعله السلف ، وان هذا السلف اعطى أقصى ما لديه فى حدود امكانياته اداء للواجب الوطنى لما ترددت فى دفن هذا الموقف فى زوايا النسيان .

أما هذا الموقف فاذكره فيما يلى : ــ

لقد جرت عادة البريطانيين فى السودان كسياسة عامة أن يخرجوا من المدارس آلات مكتبية تعينهم على الحكم ... وكان القبول فى المدارس محدودا بحدود حاجة الحكومة للموظفين لا للعلم وحده .

ان الانجليز لم يكن يهمهم التثقيف العام وانما كانت تهمهم مصلحة الحكم البريطانى فى السودان وتسيير دولاب الاعمال فيه .

وعندما انشأوا الجامعة أخذوا يطبقون هذه السياسة ... وقد وضع فى صلب القانون فقرة تقول ان أخذ الطلبة بالجامعة بقدر ما يمكن للحكومة ان تستخدمه من الطلاب ، بمعنى اذا اريد استخدام عشرة أطباء فى عام ١٩٤٠ وكانت مدة الدراسة خمسة أعوام أخذ عشرة طلبة فى عام ١٩٣٥ .

ومنذ أول عام لى فى عضوية مجلس الجامعة وهو أول مجلس لها برئاسة السير نيوبولد لاقرار دستور الجامعة تقدمت عند قراءة القانون اطالب بالتعديل مستبدلا عبارة حاجة الحكومة بعبارة حاجة البلاد ... أى أن القاعدة فى القبول تكون حاجة البلاد لا حاجة الحكومة وحدها ، وذلك فى حدود الميزانية بطبيعة الحال .

ولكن الانجليز الذين كانوا يضمرون الحد من التقدم العام الممثل فى زيادة عدد المتعلمين وفى كيفية هذا التعليم ، لم يوافقوا على هذا التعديل .

كانوا مصرين على الاستمرار فى تطبيق سياستهم لانهاء جزء من خطة واسعة يمليها الفهم الاستعمارى ويتطلبها وضعهم كمستعمرين لكى تعينهم على البقاء اطول أمد فى الحكم بحجة عدم توفر المتعلمين . كما ان الشعب المستنير لا يخضع للاستعمار وقد ظللت فى كل عام اثير هذا الموضوع فى قوة ، وفى اصرار .

وكانوا — أى الانجليز — يرفضونه فى سياسة واصرار وقد كنت مع الحق وكانوا مع الباطل . ولا بد للحق ان يتغلب فى النهاية . وكان ذلك يوم أن ساعدتنى ظروف معينة فى تقرير المبدأ الذى وقفت عنده لا أحيد . فقد وضحت قلة عدد الاطباء والمهندسين بالنسبة لتكاثر الخدمات العامة واضطرت الحكومة الى استيراد الاطباء من الخارج باضعاف مرتبات السودانيين ، فوضح فى اذهان البريطانيين ان التطور أصبح أقوى منهم ، وأقوى من سياستهم ، كما ان تكاليف تعيين أجانب قد أسقطت اعتذارهم بالميزانية ، فاضطروا مرغمين فى النهاية لتعديل

الفقرة التى ظللت اطالب بتعديلها زمنا طويلا . لقد أصبح القبول فى الجامعة بعد هذا النص غير مقيد الا بقيود المؤهلات وميزانية الجامعة نفسها .

لحظات حرجة لا أنساها !

تمر بكل انسان لحظات حرجة لا ينساها ولو مرت بسلام ، وقد مرت بى لحظات حرجة كثيرة بالقلابات والجبال ولكنى لا أود ذكر ما مر بى من هذه اللحظات الا تلك التى لها صلة مباشرة بالوطن فمن ذلك على سبيل المثال والذكرى أقول انه .

أثناء الحرب العالمية الثانية كان من حظ السوادن أن كان الايطاليون هم المكلفون من قبل (هتلر) لغزوه وقصفه بالطائرات وكنت أنا فى ذلك الحين قاضيا ببورتسودان وكان واجبى الوطنى مع المسئولين من رجال الحكومة مراقبة الطائرات المغيرة بمنطقة المطار والبنزين ، لم أتردد فى قبول ذلك الواجب الخطر بصدر ملؤه الايمان بالله وحب الوطن وذات يوم جاءنا سرب مكون من خمس طائرات ولما سمعت صفارة الانذار بقرب وصولها هرعت ومعى أحد رجال البوليس ، ولما وصلنا المطار كانت الطائرات تحلق فوق رؤوسنا ، فلجأنا الى خندق بالقرب منا ، ولما أفرغت الطائرات حمولتها وانصرفت خرجنا لتفقد ما أحدثته ، جاءت خمس طائرات أخرى على أعقابها ولما لم يكن بالقرب منا خندق استلقينا على الارض حتى رمت الطائرات قذائفها وانصرفت ، ولكن سرعان ما اعقبتها خمس طائرات أخرى فانطرحنا على الارض ولما هممنا بالقيام جاءت خمس طائرات أخرى حتى كمل عددها خمس وعشرين طائرة ونحن نترقب الموت فى كل لحظة ورفيقى البوليس يندب حظنا مردداً خطأنا بالخروج من الخندق الأول ولكن كم كانت فرحتنا عظيمة عندما رجعنا أخيرا بعد التفقد للأهداف التى رميت ، ومررنا بالخندق الأول الذى كنا فيه من قبل وأسفنا على عدم بقائنا فوجدنا قنبلة فى بطنه وقد انهار ، فذكرت ساعتئذ قول اللطيف الخبير : « عسى أن تكرهوا

شيئا وهو خير لـكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لـكم والله يعلم وانتم لا تعلمون »

فسمع ذلك رفيقى قال بصوت عال أيوه والله صدق الله العظيم ٠

سقت هذه القصة لاذكر تلك الايام العصيبة التى مرت بالسودان وهب أهله كلهم حربيون وملكيون بقلوب ملؤها الايمان وحب الوطن، ومن ذلك أن أهالى الديوم بالثغـر عصوا أمر المفتش باخـلاء أماكنهم وقالوا الى أين المفر ؟ وسيلحقنا الموت أينما كنـا وصمدوا فى أماكنهم يهدئون روع العائلات حتى مرت العاصفة ، لعل القارىء لا ينسى اننى ذكرت فى مقدمة هذه القصة أنه كان من حظ السودان ان كان غزوه على أيدى الطليان ، لانهم كانوا فى الظاهر فاشلين فى الحرب ، اما لضعفهم أو لانهم أجبروا عليها فكانوا غير جادين ، لانهـم بالرغم من ظهـور الأهداف لا سيما تلك التى بالمينـا بالبر الشرقى حيث البضـائع التى لا يخطئها العد ويراها الاعمى ، ومع كل هـذا فلم تصب بضرر يذكر وذات يوم جاءت طائرة واحدة يقودها ألمانى ــ كما علمنا بعـد وحلق كثيرا ولم يرم أية قنبلة حتى اسقطت طائرته فى البحر فأسر وأخـذ الى المستشفى وكان فى أثناء سيره يتلفت يمينا ويسارا وينظر فى استغراب وهو يقول : أهذه بورتسودان التى يقول الطيارون الايطـاليون أنهم دكوها دكا ٠ وهى بهذه الحالة العامرة ولم أر فيها أثرا يدل على شىء من ذلك ! ! وفى تلك الايام العصيبة لما كانت الجيوش الايطالية بالقرب من العلمين ، كانت هنـاك قوات ايطالية كبيرة تحاصر كسـلا وتوالى طائراتها التحليق فوق سمائها ٠

وكان الانكليز فى ذلك الوقت قد بلغ بهم اليأس والقنوط شأوا بعيدا حتى صرح لى قائد القوة الانكليزية فى بورتسودان ان الالمـان وهم الآن بالعلمين ينتظر دخولهم فى السودان فى أى وقت وكاد يحـدد الايام هذا من جهة ومن جهة أخرى قال لى مسئول بريطـانى ــ عن بورتسودان أن لديه أوامر ينتظر صدورها ــ بعد قليل ــ باخلاء المدينة وخروجهم منها وتسليمها الى بعد أن تصل تلك الاوامر من الخرطوم ،

وقد علمت من سياق حديثه أن الحاكم العام وهو السير استورتساميز يرى اخلاء السودان ، لانه ليس به قوة تدافع عنه ولكن الظاهر ان وزارة الخارجية البريطانية لم توافق على ذلك ، وبمحض توفيق الله تعالى ولطفه — كتب الله النصر لجيشنا الصغير وانسحب العـدو الى قواعده طوعا أو كرها — وصدق وعد الله القوى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » .

وقد علمت من تلك المصادر التى كنت أتحدث معها فى ذلك الوقت محبذا فكرة الحاكم العام بجعل السودان مفتوحا ، لحماية أهـله من شرور الحرب التى لا طاقة لهم بها ، فقال محدثى : الحقيقة أن الحـاكم العام كان يرى أن خروج الانجليز من السودان فيه حماية لأهـله أولا وأننا سنعود اليه فنفتحه من جديد ، وانا على خروج الطليان لقادرون ، وأن هذا الفتح الجديد ينهى تلقائيا اتفاقية الحكم الثنائى ونصبح وحدنا فى السـودان مع السودانيين تلك كانت خطتهم ومكرهم « والله خـير المـاكرين »

في الميدان السياسي

جمعية اللواء الابيض

كان السياق التاريخي يقتضى ادراج الحديث عن صـــلتى بجمعية اللواء الابيض فى الفصل السابق من هـــذه المذكرات اذ وقعت حوادثها فى عام ١٩٢٤ وقـــد كنت آنذاك فى سلك الوظائف ، ولكننى رأيت أن الترتيب الموضوعى يجعـــل الحديث عن جمعية اللواء الابيض أدنى الى هذا الفصل لانه عمل تطوعى وليس بتكليف رسمى •

كانت حـــركة جمعية اللواء الابيض أساســـا من صنع المصريين • هم الذين القوا بالفكرة فى أذهان السودانيين فعمل الســـودانيون على تكوينها والمصريون هم الذين هيئوا لهـــا الجو وهم الذين عضـــدوها بنفوذهم ومساعيهم ودعاياتهم وأساليبهم فى التنظيم والتكتيك والتدبير غير اننا نحن السودانيين الذين كنا نهدف لتحقيق مصلحة السودان دون غـــيره عملنا على تحويلها لخدمة الســـودان واعتبرنا ان المصريين كانوا يعملون معنا لمصلحة مشتركة هى اخراج الانجليز من وادى النيل •

وقد كان لنا مبدأ معروف وهو اننا محكومون برجلين أحـــدهما قوى والثانى ضعيف ••• وعلينا ان نستعين بالضـــعيف للخـــلاص من القوى فاذا ما أخرجناه التفتنا على الضعيف فتخلصنا منه بالود ان كان للود سبيل •

وكنت أنا أعمل لجمعية اللواء الابيض فى القضارف وكسلا بالتعاون مع البكباشي محمدصالح جبريل ، واليوزباشي عبدالله بكر ، واليوزباشي عبد الدائم محمد وآخرين وكانت صيغة القسم التى نعرضها على كل من يرغب فى الانضمام الينا كما يلى : ــ

(اقسم بالله العظيم انى بعد سماع ما تقولون لا أبوح بسره حتى الموت عملت به أو لم اعمل) • ومما يذكر أن كان من بين أولئك الاخوان الذين أخذوا القسم على يدى الشيخ أبو شامه عبد المحمود وكان قاضيا بمديرية كسلا يوم ذاك ••• كما أخذ عليَّ القسم فى تلك المنطقة كثيرون من رجال القبائل وزعماء الطرق الصوفية والاعيان وغيرهم ممن كانوا يتجاوبون معنا فى الفهـم وتدفعهم وطنيتهم الى مكافحة الاسـتعمار البريطانى •

والحق يقال بأن هذه الحركة كانت بالنسبة للكثيرون من السودانيين أشبه بالقبس يشع فى ليلة حالكة الظلام • وقد تغلغلت الدعوة للجمعية بين كل الطبقات وفى كل الطوائف •

وكان الانتساب اليها شرفاً أى شرف ومما هو جدير بالذكر أن المنتسبين الى هـذه الجمعية كانوا كالخـلايا لا يعرف بعضهم بعضـا الا القليل • وكان هذا التنظيم هو السبب الرئيسى فيما يدور أحيانا من عند السلطات حول من كان ولم يكن من أعضاء تلك الجمعية •

ولو لم يتسرع المتسرعون فيتعجلون النتائج ، قبل نضوج الحركة ، ولولا ما حدث من خيانة غير متوقعة من الجهة الاجنبية الوحيدة التى كنا نعول عليهـا كل التعويل ، ونثق فيها كل الثقة ••• لولا ذلك كله لكان لهذه الحركة العظيمة خطرها وأثرها فى التبدير باستقلال السودان•

حزب الجبهة الوطنية

فى غضون عام ١٩٥١ رأى السادة خلف الله الحاج خالد وميرغنى حمزه وعثمان حسـن عثمان ومحمد الحسن دياب ان الواجب الوطنى يقتضيهم تأليف حـزب يعبر تعبيرا تاما عن وجهـة نظرهم السياسـية وعن أسـلوبهم فى العمـل السـياسى وهو أسـلوب عرفوا به وتميز بالحزم والنزاهة • وكنت وقت تأليف الحزب لا أزال فى سلك القضـاء ولكننى على أبواب التقاعد بالمعـاش والتحرر من قيود الوظيفـة • •

وكنت على اتصال بهؤلاء الاخوان وعلى علم تام بما انتهوا اليه من فكرة تكوين الحزب ومبادئه وأهدافه ولهذا كان الشيء الطبيعي ان انضممت اليهم بمجرد بدء اجازتي النهائية في ديسمبر ١٩٥١ واشتركت في النشاط السياسي للحزب .

الاحزاب السياسية في باريس

وفي يناير عام ١٩٥٢ عقدت هيئة الامم المتحدة أحد اجتماعاتها في باريس فادركت الاحزاب السياسية السودانية دون سابق اتفاق ان هذه فرصة لكل منها لاعلان وجهة نظره بشأن مصير السـودان . فسافر الى هناك وفد من حزب الجبهة الوطنية مكونا مني ومن ميرغني حمزه وسافر في نفس الطائرة الدكتور سيد احمد عبد الهادي ممثلا للحزب الجمهوري الاشتراكي وفي باريس اجتمعنا بممثلي حزب الامة وكانا السيدين أمين التوم وزين العابدين حسين شريف ويمثل حزب الاشقاء السيد ابراهيم المفتي وكانوا جميعاً قد سبقونا الى هنـاك . وفي ذلك الاجتماع الموفق تساءلنا : هل يستطيع أي حزب منا ان ينفذ برنامجه والانجليز موجودون بالسودان ؟ فأجاب الجميع بالنفي .

قلنـا اذن فخطوتنا الاولى هي ان تتفق على اخراج الانجليز ... وان تتفق على تقرير المصير عن طـريق استفتاء حر محايد . فوجـدت الفكرة من الجميع استجابة كاملة .

اننا ونحن خارج الحدود ، حيث الهواء الطلق كنا نلتقي كمواطنين سودانيين أحرار ، نحس باحساس واحد ووكل ممثلو الاحزاب صياغة ما اتفقوا عليه لحل مشكلة السودان الى السيد ميرغني حمزه ووضعه في كتيب لعرضه على هيئة الامم وقد قام ميرغني بالمهمة خير قيام وطبعت نسخ كثيرة ووقع جميع ممثلي الاحزاب السـودانية على ذلك الكتيب



فى أروقة الامم المتحدة بباريس من اليمين ـ السيد ميرغنى حمزه ـ السيد زفر الله خان ـ الدرديرى



ووزع على اعضاء هيئة الامم فرحبوا بما جاء به من مبادىء ، وكان كل من يقرأه من أعضاء الوفود يقول لنا : الآن وضح لنـــا ان لكم قضية تريدون حلها حلا عادلا ٠

ومما يجدر بالذكر لقد ساعـــدنا مساعدة فعالة خـــلال وجودنا فى باريس رجلان أولهما السيد ظفر الله خان وزير خارجية باكستان والسيد فارس الخورى ممثل ســـوريا فى الامم المتحـــدة ٠ أما المندوب الدائم الانجليزى السير قلاون جب فكان يقابلنا ببرود ونرد عليه بالمثل !

وكان ظفر الله خان وفارس الخورى يقدمان لنا النصيحة الخالصة وكانا يدعوان لقضيتنا ويعملان على انجاحها وكان السيد ظفر الله خان يدعونا للاجتماع به فى غرفته وقد صرح لنا بانه كان يفضل الاجتماع بنا هنـــاك حتى لا يثير غضب الانجليز على باكستان فيخذلونها فى مطالبتها بكشمير ٠ وذات يوم بينما كنا نتغذى معه قال الســـيد ظفر الله خان : لقد سألت المســـتر ايدن وزير خارجيـــة انجلترا قائلا اذا كانت نتيجـــة الاستفتاء فى السودان ضدكم فهل تخرجون ؟

فأجاب ايدن مستنكرا : لماذا لا نخرج ؟ فقلت له اذا كنتم تنوون ان تفعلوا ذلك حقا فان مشكلة السودان سوف تكون ســـهلة الحل ؟ فكان هذا مما قوى ايمانى بان حل قضية السودان فى أيادى أبنائه وانه رهين بالتفاهم على رأى واحد ٠

وللتاريخ وحده ، انقل فيما يلى المذكرة المشتركة التى وزعها ممثلو الاحزاب على أعضاء الوفود ونصها هكذا : ـــ

فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٥١ نشر الوفدان السودانيان الممثلان لجبهة الكفاح المشترك ولحزب الامة ، والموجودان آنذاك بباريس ، وثيقـــة اعلنا فيها الموافقة على اقتراح اجراء استفتاء حر كحل للمشكلة السودانية ٠ وقد تضمنت هذه الوثيقة المبادىء والشروط العامة لاجراء الاستفتاء ٠

عقب ذلك ابرقت الجبهة الوطنية المتحدة الى هيئة الامم بتأييدها

المطلق لمبدأ الاستفتاء . وعلى أثرها لحق وفد الجبهة الوطنية المتحدة بالوفدين الآخرين بباريس لمواصلة الجهد المشترك لعرض قضيتهم على هيئة الامم المتحدة .

وها هي الوفود الثلاث التى تجمع اليها أغلبية الرأى السودانى الساحقة بمختلف نزعاته السياسية وقد اجتمعت فى منظمة واحدة باسم « الوفد السودانى المتحد » تدعو الرأى العام الدولى فى مختلف دوائره الى تأييد فكرة الاستفتاء والمعاونة فى العمل على تنفيذها كالحل الوحيد السليم العادل للمشكلة السودانية .

واجابة للتساؤل الصادر من كثير من دوائر وفود الهيئة وصحافتها رأى الوفد السودانى المتحد ان يعد مذكرة عن الخطوات والاجراءات العملية التى حازت موافقة اعضائه الاجماعية باعتبارها الأسس الرئيسية الهامة والمسايرة للظروف الحاضرة فى بلادهم لتنفيذ استفتاء حر يكفل مصالح السودانيين على السواء فى تقرير مصيرهم دون خشية من ضغط أو اغراء من احدى دولتى الحكم الثنائى أو أى مصدر خارجى آخر .

وهذا نص المذكرة :

ان غرض الوفد السودانى من تقديم هذه المذكرة هو اقناع الرأى العام الدولى ممثلا فى ساحاته الحرة ، بمنطق وعدالة الاستفتاء ، وامكانية تنفيذه فى أمن وسلام ونظام كأداة دستورية سليمة مقبولة من جميع السودانيين على اختلاف عقائدهم ومبادئهم السياسية فى مستقبل بلادهم فضلا عن ان السودانيين فى هذا المنهج ، يثبتون أنهم فى مجموعتهم قد وصلوا الى درجة من الرشد السياسى تؤهلهم للسيطرة على شئونهم ليسيروا ببلادهم قدما فى موكب الرقى والحضارة والسلام ، وليأخذوا مكانهم بين الامم التى تساهم فى تحقيق المثل العليا للامم المتحدة

اجراءات الاستفتاء : —

الوسائل المقترحة لضمان مصلحة السودانيين فى اجراء استفتاء حر نلخصها فيما يلى : —

أولا : الانهاء الفعلى الناجز للنظام الحاضر فى الســودان وذلك بتعيين لجنة من هيئة الامم المتحدة مقبولة للسودانيين من الدول الاعضاء المحايدين ، تباشر سلطات ومسئوليات دولتى الحكم الثنــائى الحاليتين المتنازعتين (بريطانيا ومصر) ، نيابة عن هيئة الامم المتحدة للقيام بتنفيذ ومراقبة اجراء الاستفتاء .

ثانيا : تتولى هيئة الامم المتحدة ضمان الامن والسلام فى البلاد أثناء فترة الانتقال ، وحتى يتم الحل النهائى للقضية السودانية عن طريق الاســتفتاء .

ثالثا : يعهــد الى لجنة هيئــة الامم المتحــدة الاختصاصــات المحددة الآتية : ــ

١ ــ تأليف حكومة ســودانية مؤقتــه مؤتلفة تمثل ما أمكن الاحزاب السياسية القائمة الآن وسيرها من وجهات النظر للاضــطلاع باعباء الادارة العادية للبلاد . تحت اشراف اللجنة الدولية الى ان تنتقل السلطات نهائيا لممثلى الشعب المنتخبين انتخابا دستورياً حرا .

٢ ــ على هــذه اللجنة الدوليــة بالتعاون التــام مع الحكومة السودانية أن تهيىء الظروف والاجهزة التى تمكن السودانيين من التعبير الصريح عن آرائهم الحرة فى مستقبل بلادهم فى أقرب وقت ممكن .

هذا وتستلزم هذه الظروف والاجهــزة ما يأتى من الاجــراءات ضمن غيرها : ــ

(أ) جلاء الجيوش غير السودانية « بريطانيــة ومصرية » وكل الضباط والموظفين غير السودانيين فى قوة دفاع الســودان (عسكريين ومدنيين) .

(ب) جلاء جميع الموظفين غير الســودانيين وعلى الاخص الذين يشغلون مناصب السلك السياسى والبوليس والامن العام والقضاء وأى موظفين آخرين فى أى مناصب أخرى غير هذه قد يرى فى وجودهم تأثير

فى حرية التعبير عن ارادة الشعب الحرة خلال الاستفتاء .

(ج) تعديل أى قانون أو لوائح أو عرف قائم مقيد للحريات الشخصية أو العامة كحرية التعبير والكتابة والاجتماع أو قد يؤثر فى حرية الاختيار .

(د) يعهد لهذه اللجنة الدولية متعاونة مع الحكومة السودانية ان يستوثق من ان اختيار الشعب الذى يتوصل اليه بانجع الوسائل السلمية التى تراها مناسبة ينفذ بأسرع ما يمكن حتى تنتقل السلطات النهائية الى ممثلى الشعب المختارين اختيارا حرا وفقا للانظمة الديمقراطية الصحيحة المتبعة .

مذكرة تفسيرية : —

ان مقترحاتنا هذه للاجراءات والخطوات العملية لتنفيذ الاستفتاء الحر تعتمد على أساسين هما من الاهمية بمكانة عظمى : —

١ — الانهاء الفعلى لاوضاع الحكم الثنائى القائمة الآن .

٢ — اجراء استفتاء فى جو كامل الحرية يقرر فيه السودانيون مصير بلادهم وفقا لرغبات اكثرية السودانيين الحقيقية .

(أ) مما لا ريب فيه ان النزاع الحالى بين طرفى الحكم الثنائى ينقض دعائم هذا الحكم من أسسها ، فضلا عن ان السودانيين لم يعترفوا فى أى يوم من أيام حياة ذلك الحكم بالدستور الذى قام عليه ولم يرتضوه كأداة حكم شرعى أو صالح لادارة بلادهم ولم يدعو فرصة تمر دون الانحاء عليه والمطالبة باجماعهم مع اختلافهم فى تكييف الوضع النهائى لمستقبل بلادهم على انهائه فورا كما انه لا شك فى ان النزاع بين دولتى الحكم الثنائى قد نشأ منذ مولد تلك الاتفاقيات التى بنى عليها فهو ملازم لطبيعتها وجوهرها ولذا فقد كان على الدوام مثار مشادة بين الطرفين كانت مصالح البلاد فى أكثرها فريسة لتلك النزاعات والسودانيون فيها

كبش الفداء ، وما زال هذا الحال يتدرج من سيىء الى أسوأ حتى بلغ القمة فى السنوات الاخيرة الى ان تقوض كليا فى آخر الامر بالغاء مصر لاتفاقيتى سنة ١٨٩٩ ومعاهدة ١٩٣٦ .

ومن ناحية أخرى فقد نما الوعى السياسى بين السودانيين فتيقظوا لحقوقهم والتزاماتهم الوطنيـة ، وغدوا أشد ارهافا وحساسية للضرر العاجل الذى يلاحق مصلحة بلادهم فى حاضرها والاخطار العظيمة التى تهدد استقرارها فى مستقبلها من جراء هـذا الموقف الحـالى ، فما من سودانى حر ولا أى أحد يحس بأية غيرة فى نفسه على مصلحة السودان وتقدمه وخيره ، يستطيع ان يتسامح فى استمرار هذا النظام القائم لاى مدة اطول .

لذا ، فنحن السودانيين على اختلاف مذاهبنا ومبادئنا السياسـية قد عقدنا الخناصر ووطدنا العزم ، لنعمل بكل ما فى وسع الجهد الانسانى لنضع حدا عاجلا لهذا الحكم الحالى البغيض ، ولنسيطر على شـئوننا بأنفسنا . ان الاخطاء التى ارتكبتها ادارة السودان الحالية والاضرار التى ألحقتها بمصالحه غير عابئة بأبسط حقوق الانسـان الاساسية ، وذلك بزرع بذور الشقاق والتفرقة — عامدة — بين طبقات الشـعب ومناطقه وطوائفه من عنصرية واجتماعية أو طائفية دينيـة أو ثقافية أو قبلية ، كمشكلة الجنوب والشـمال ، وطائفتى الانصـار والختمية الدينيتين ، والمثقفين وزعماء القبائل ورؤساء الادارات الاهلية (نظـام الحكم غير المباشر) ، كل ذلك مع القصور الـكبير والضـعف الفاحش فى خطط وتنفيذ السياسات التقدمية قد خلف فى نفوس الســودانيين طابعا قويا عميقا من سوء الظن بالادارة الحالية كانت نتيجته تلاشى الثقة تماما فى حسن نوايا هذا العهد كله أو اخلاصها أو صـدق مقصده فى تقـدم السودانيين تقدما جديا للوصول لحكم بلادهم حكما حقيقيا صالحا فى أية فترة معقولة من الزمن .

لكل هذه الاسباب رحب السودانيين جميعهم على اختلاف أحزابهم

السياسية ووجهات نظرهم القومية بالغاء الحكومة المصرية لاتفاقيتى الحكم الثنائى والمعاهدة ٠٠

والسودانيون يقفون جميعا الآن صفا واحدا يعارضون ويقاومون أى مجهود يبذله الطرف البريطانى لبعث الحياة من جديد فى هذه الاتفاقيات والمعاهدة أو اعطائها أى سند شرعى أو قانونى أو انسانى تستند عليه غير مجرد القوة الفعلية الغاشمة التى تعتمد عليها وحدها الآن ٠ ومن ناحية أخرى فان اصدار الحكومة المصرية للمراسيم الخاصة بالسودان التى صدرت نتيجة الغاء المعاهدة لا تقيد جميع السودانيين بأى حال من الاحوال ٠

٣ — اجراء استفتاء حر فى جو طليق تحت اشراف هيئة الامم المتحدة والضمانات اللازمة والرقابة الملائمة من لجنة دولية غير متحيزة من بين اعضائها المحايدين ٠

لقد أبدى السودانيين بقطع النظر عن ألوانهم السياسية ومبادئهم الحزبية موافقة اجماعية وتأييدا باتا لمبدأ الاستفتاء الحر لتقرير مصير بلادهم كما أعلنه وزير الخارجية المصرية فى اجتماع هيئة الامم المتحدة العام وأقره سكرتيرها العام على انه الحل العملى المنصف المعقول لمشكلة السودان ٠

فوفد السودان المتحد الذى يمثل كل أحزاب السودان القائمة الآن ، وتسنده الاغلبية الساحقة للرأى السودانى العام ، اذ قبل وأيد مبدأ الاستفتاء وطالب بانجازه فورا ، فانما يفعل ذلك مقتنعا بان الطريق الصحيح رغم الخلاف بين السودانيين فى تكييف مستقبل بلادهم النهائى وتحديد علاقاتها المقبلة مع كل من مصر وبريطانيا حسب مشيئتهم ٠ انما هو اتفاق جميع السودانيين على وجوب تقرير المصير باتخاذ الطرق المنظمة السليمة وبالوسائل الدستورية الديمقراطية الصحيحة ٠

على اننا نعتقد اعتقادا حازما ان الاختيار الحر لا يمكن ان يتم فى ظل الادارة الحالية والظروف التى تسود بلادنا الآن والتى عملت لها هذه الادارة جاهدة باستمرار ومثابرة طول مدة حكمها لا تزال قائمة ،

اذ لا يمكن ان توصف هذه الادارة حتى من أكثر المؤيدين لهـا حماسا انها ادارة محايدة أو غير مغرضة فى هذا النزاع فهى بتاريخها واعمالها وميولها ، يتضح لاقل الناس بصرا بالامور انها كانت تعمل دائبة وجاهدة بكل نفوذها وسطوتها على اطالة سيطرتها على مصائر هذه البلاد لاطول أمد ممكن والوصول فى النهاية الى تسوية تتفق مع مطامعها واغراضها تسوية يعارضها السودانيون جميعا بكل قوة . وسوف يقاومونها لآخر نفس من حياتهم . ولا محالة فى ان اصرار الادارة الحالية على سياستها هذه بأساليبها الحالية سوف يسفر عن جعل نتيجة الاستفتاء أمرا مفروغا منه قبل حدوثه — ويطيح بكل أمل فى تسوية سلمية دون سفك الدماء واشاعة الفوضى . وقد زاد هذا الموقف تعقيدا الغاء اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ ومعاهدة سنة ١٩٣٦ من جانب الحكومة المصرية والاصرار على بقائهما من جانب بريطانيا ومهما اختلفت نظرة اعضاء هيئـة الامم المتحدة الى عمل الحكومة المصرية هذا فلا مفر من الاعتراف بانه قد ترك السودان فى موقف شاد جدا . فهو يترك الحاكم العـام الحالى بسلطات فعليـة دكتاتورية اكثر من قبـل . لم تعد ترتكز الى سـند شرعى أو انسانى أو قانونى ، بل تجعل من السودان مستعمرة بحته يكون أى اجراء فيه نحو تقرير مصير البلاد صادرا من جانب بريطانيا وحـدها ويظل دائما موضع الطعن بانه أبرم تحت تأثير الضغط والارهاب، ويقحم السودانيين بسبب ذلك فى نزاع بريطانى مصرى بما قد ينجم عن هـذا من الاضرار بالعلاقات الودية المستقبلة مع مصر وحتى مع بريطانيا نفسـها . وتحت هذه الظروف فاننا لا نرى بدا من سلوك الطريق الذى قدمناه آنفا لحل المشكلة السودانية وهو الطريق الذى يجمع الوفد السودانى المتحد بعد دراسة وتأمل عميقين على انه الطريق السليم العملى الوحيد الذى يحقق اتباعه حلا سلميا لقضية البلاد تقر تعدالته وانصافه كل الامم بما فيهـا مصر وبريطانيا .

نداء وختام

الى ضمير العالم الحر ، الى أممه المحبة للسلام العـاملة له ، الى

صحافته الرشيدة المعبرة عن آماله وأمانيه. اليكم انتم خصوصا يا أعضاء الهيئة الدولية الموقرة ، يامن نصبتم أنفسكم لتحقيق مثل العالم العليا . اليكم جميعا تتقدم طالبين العون والتأييد والتعضيد ، فى اثارة مشكلتنا أمام الهيئة الدولية لتتولى قضيتنا فتحلها وفقا لمبادىء العدالة ، وحقوق الانسان الاساسية التى أكدها هـذا المجتمع الدولى العظيم ... اننـا موقنون ان هذه الهيئة الدولية انما تستوحى مبادىء عهدها ، والرسالة التى تعهدت الاضطلاع بهـا عندما تمد لنـا يد العون وتولى اهتمامها الصادق أمة تناضل فى سبيل الاعتراف بكينونتها لتتبوأ مكانها بين الامم المحبة للسلام ... اننا لموقنون ان هيئتكم الموقرة لن تستمع الى دولتى الحكم الثنائى كطرفين فى النزاع فى هذا الامر الخطير دون ان تصـغى الى صوت السودان الحقيقى ، ذلك الصوت الذى يعبر عن مستقبل أمة وآمال شعب ، يجتاز اخطر مرحلة فى حياته واحـرج فترة فى وجوده . واننا ليتملكنا أشد الاسى ويحز فى نفوسنا امض الالم ان نرى جنوحا فى هـذا الميدان الدولى الى اعتبار قضية بلادنا بعرض المسـاومة بين الدولتين المتنازعتين مع انها قضية الحرية والرقى لعشر ملايين من الانفس البشرية يريدون ان يتبوأوا مكانتهم بين الدول الاخرى كافة لها حقوقها ومراميها وكينونتها .

اننـا نستثير فى العالم الحر ، كل البواعث الانسانية النبيلة التى تدفعه لتأييد قضيتنا العادلة ، وسنطلب اليكم انتم يا أعضاء الهيئة الموقرة العمل على اثارة قضيتنا فى هيئتكم ، حتى تتخـذ الخطوات الايجابية الفعالة للفصل فيها وانهاء حالة التوتر والقلق التى تتجاذب أطراف حياة المجتمع السودانى الآن .

ان الوفد السودانى المتحد حينما يتقدم الى الهيئة الدولية لبسط قضيته ولعرض الظـروف العصيبة التى تحيط ببلاده فى هـذا الميدان الدولى انما يتبع الطريق السلمى الذى يدعو اليه العالم اجمع اليـوم ، وسيواصل جهده فى اتباع هـذا الطريق ما وسعه ذلك حتى تنال بلاده بغيتها وتحقق حريتها .

وقد عقد السودانيون العزم ووطنوا النفوس على مواصلة هـذا الطـريق السليم السلمى ، فهم يرجون الا تضطرهم الظـروف الجائرة القاسية ليسلكوا مكرهين غير طائعين طريقا آخر قد تراق على جوانبـه الدماء وتنتشر بسلوكه الفوضى ويشع البؤس بين طبقات شعبه الهادىء الامين ، هذا الشعب الذى يأبى الا أن يعيش حرا أو يموت كريما أبيا .

هذا وقد أصدرت الاحزاب المذكورة بعض ملاحق لهذه المذكرة كلا بمفرده ولا أجد فى الوقت الحاضر ضرورة لاثباتها اذ تكاد أن تكون جميعها تكراراً أو توكيدا لما جاء فى المذكرة الاصلية .

الحزب الوطنى الاتحادى

أثناء وجودى فى مصر عام ١٩٥٢ رأيت ان الواجب الوطنى يقتضينى ان أحاول ادماج الاحزاب الاتحادية فى حزب واحد وهذه الاحزاب هى مؤتمر الخريجين ، مؤتمر السودان ، حزب الاشـقاء بجناحيه ، حـزب الاتحاديين ، حزب وحدة وادى النيل ، الجناح اليمينى من حزب الاحرار الاتحاديين وحزب الجبهة الوطنية . وقد لعب المصريون دوراً مشكورا فى توحيد هذه الاحزاب والحيلولة دون تبديد الجهود .

وكانت تلك المرحلة من مراحل الحركة الوطنية تقتضى مثل هـذا التكتل لاننى اعتقدت ان كثرة الاحزاب وتعـددها منفذ يدخـل منه الاجنبى بالاضافة الى ان فى هذا التكتل اتقاء للاصطدامات بين أحزاب وهيئات يجمع بينها هدف سياسى عام مشترك . وكان هذا شعور جميع قادة تلك الاحزاب الا انه كانت هنالك عقبات تقف فى طريق هذا التكتل ... وكان فى مقدمتها بل أهمها رئاسة ذلك الحزب الواحد .

وفى الفندق الذى كنت انزل فيـه مع السـيدين خلف الله خالد وميرغنى حمزه زارنى فى منتصف الليل السيد محمد نور الدين، وتحدث الىّ بحضورهما فى وجوب حسم هذا الخلاف حول الرئاسة لـكى يتم انصهار هذه الاحزاب .

ورشحني مشكورا لتولى رئاسة الحزب • فرفضت ••• وقلت له ان هذا الترشيح ربما زاد من شقة الخلاف •

وفى الصباح اتصلت بكثيرين وأخذت اقرب بين الآراء المتعارضة •• ولم ازل أبذل جهدى حتى تم لنا ان نكون الحزب برئاسة السيد اسماعيل الازهرى واتفقنا بتسميته باسم الحزب الوطنى الاتحادى •

الصلح بين نجيب وجمال

همنى وأنا بمصر أمر الخلاف الذى وقع بين اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية المصرية فى ذلك الحين والبكباشى جمال عبد الناصر نائب الرئيس فى عام ١٩٥٣ •

وكنت مدفوعا لتسوية هذا الخلاف بعوامل ثلاثة ذكرتها لهم فى مقدمتى •

أولها واقدسها : ــ اتباعا لقوله تعالى ــ انما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم •

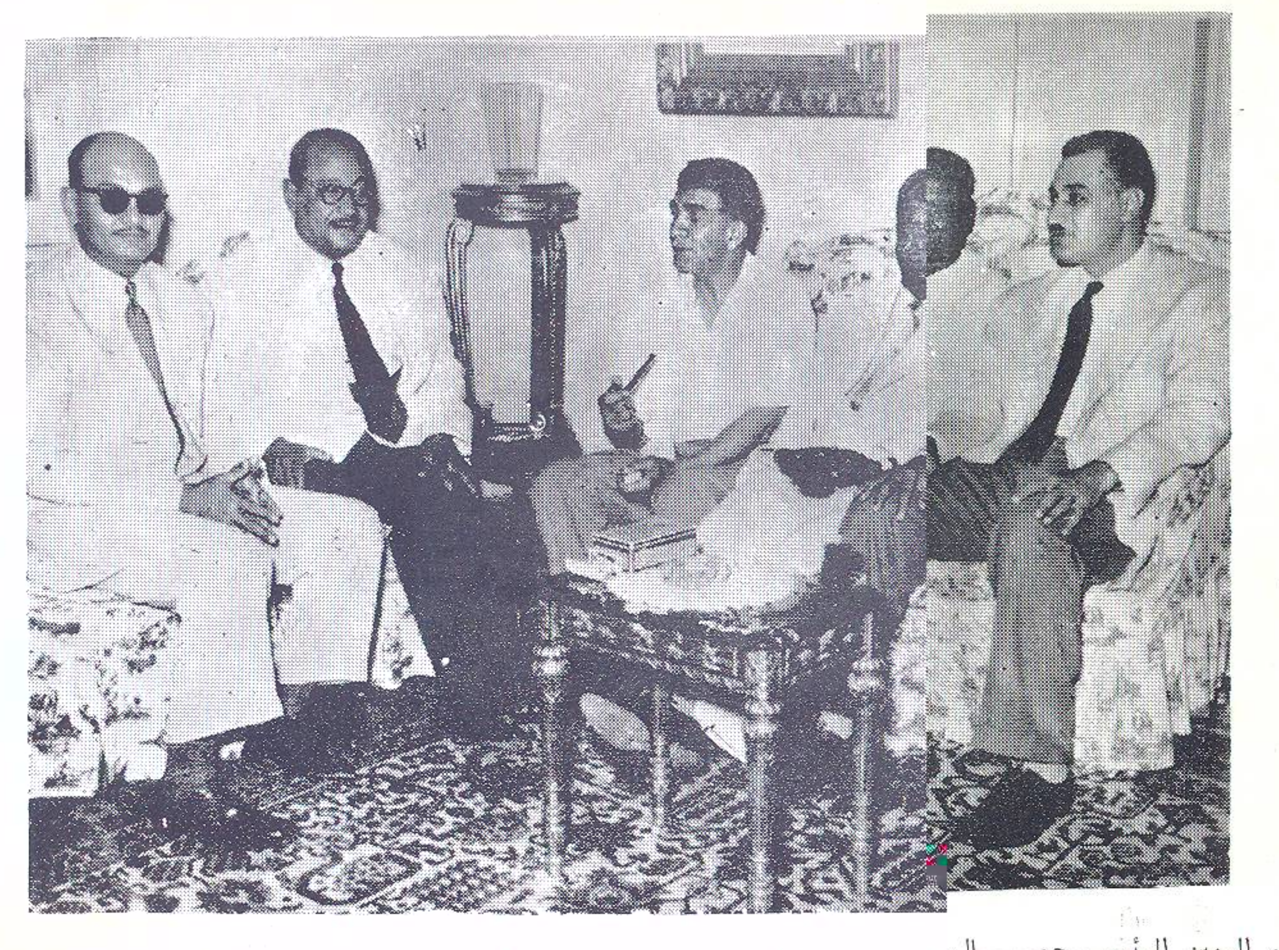
ثانيها وأعدلها : ــ ان المصريين كانوا قد تدخلوا فى مسائلنا الخاصة الداخلية وأصلحوا فيها ما أصلحوا •

ثالثها واحكمها : ــ ان كل ما يحدث بمصر ينحدر الينا ففى اصلاحهم اصلاحنا •

وكنت صريحا لما ذكرت هذا الكلام فى مقدمتى لكل من نجيب وجمال •

وعقدنا عدة اجتماعات لتصفية الخلافات وازالة أسباب الجفوة •• ووضع خطوط ثابتة للتعامل والتفاهم فى المستقبل •

وكان آخر اجتماع بمنزل اللواء نجيب ••• حيث حضر السيدان جمال وصلاح سالم وقبل جمال بوساطتنا وارتضى ما وضعنا من خطوط ••• وتصافحا وتبادلا عبارات المجاملة والود •



من اليمين الرئيس جمـــال فالدرديرى فالرئيس السابق نجيب فالمرحوم أمين السـيد فصلاح سالم بمنزل نجيب

وكان يصحبنى الدكتور أمين السيد .

وخيل الى يوم ذاك ان الامور بين الرجلين قد سويت ، وحل الصفاء محل الجفاء والوفاق محل الخصام .

والى هنا اقف ولا احب ان اتدخل فيما حدث بعد ذلك .

ولا ادرى ما هى الاسباب التى أدت الى تدهور الموقف بعد .

ان تاريخ هذه الفترة من حياة القطر المصرى عندما يسجل تسجيلا أمينا سوف يظهر ما خفى علينا ويوضح ما اعيانا فهمه .

فى بيت الرئيس جمال

وعلى ذكر ما تقدم أرى ان أقص على القارىء قصة اجتماع آخر تم لى مع الرئيس جمال عبد الناصر ، لانه يصور حلقة من حلقات التشاور الذى كان دائرا بين السودانيين والمصريين قبل الوصول الى الاتفاق الذى بنيت على أساسه اتفاقية الحكم الذاتى للسودان . كان ذلك فى عام ١٩٥٤ وتفضل الرئيس جمال عبد الناصر فدعانى مشكورا للغداء بمنزله وحضر الغداء السيد صلاح سالم . وبعد انتهائنا من تناول الطعام خرجنا للحديقة لتناول الشاى فدخل علينا السيدان عبد الفتاح حسن وحسين ذو الفقار . ولاحظت ان جميع الحاضرين من اخواننا المصريين الرسميين المشتغلين بقضية السودان آنذاك ، كما لاحظت اننى السودانى الوحيد الموجود بينهم مما جعلنى استشعر أهمية الاجتماع واتطلع لمعرفة ما وراءه .

ولم يطل بى الانتظار اذ سألنى فى سياق الحديث السيد صلاح سالم ، من غير مقدمات كمن يلقى بحجر فى الماء :

« ما هى العلاقة المقبلة التى يريد السودانيون ان تقوم بين السودان ومصر ؟

ولما كنت كما أسلفت قد استشعرت أهمية الاجتماع ، ولما كنت اعتقد ان وجودى كان مطلوبا لعدة اعتبارات يقدرها الحاضرون حق قدرها ، فقد ادركت ان السؤال لم يكن اعتباطا وانتى فى موضع المستشار المؤتمن الذى يحتم عليه وضعه ان يصدق من استشاره فضلا عن ان يكون أمرا متصلا بوطن (المسئول) الذى تحتم عليه وطنيته ان يضع مصلحة بلاده نصب عينيه وهو يحادث رجالا مسئولين كان هذا هو شعورى رغم ان الجلسة كانت غير رسمية ولعلها كانت لجس النبض فقط .

ولم اتردد فى اجابة السيد صلاح سالم على سؤاله بقولى — اننى انصح ان يؤجل هذا السؤال حتى يطرح على برلمان سودانى خالص ينتخبه السودانيون بمحض ارادتهم . واضفت : واننى لأؤكد لكم ان تكييف مثل هذه العلاقات أو تحديدها ليس فى مقدور زعيم دينى بمفرده ولا فى مقدور حزب سياسى بمفرده ، فضلا عن أن يكون فى يدى أو ايدى زملائى من المشتغلين بالمسائل السياسية .

ويبدو ان هذا الكلام لم يقنع السيد صلاح سالم ... فتجاهل المعنى الواضح فى عبارتى والذى ادعو فيه الى قفل باب الحديث حول هذا الموضوع ... وبادرنى قائلا ، معتقدا انه جاء بجديد يفتح مغاليق قلبى ، ... « نحن نقول لكم لماذا لا يكون السودان ومصر جمهورية واحدة يرأسها سودانى يرشحه السيد على الميرغنى ؟ »

وعرفت فى الحال ما يرمى اليه .

فأجبته قائلا : — « لقد سبق ان قلت لك ان هذا الامر ليس بيد أحد أو بيد حزب » .

وهنا تحدث السيد عبد الفتاح حسن بعد طول صمت فقال ان الذى سمعته فى السودان ، هو ان السودانيين يرغبون فى ان تكون العلاقة بيننا وبين السودان كالعلاقة التى تربط الهند ببريطانيا أى على نظام (الكمونولث) .

واهتم السيد جمال عبد الناصر بالعبارة التى وردت على لسان السيد عبد الفتاح حسن وتدخل لاول مرة فى الحديث قائلا فى لهجة من يقرر أمرا .

« أنا ارفض مثل هذه العلاقة »

قلت : ـ « ان السودانيين لم يتقدموا رسميا بمثل هذا العرض حتى تقبلوه أو ترفضوه فلا تحكموا بالشائعات وانتظروا حتى تصدر الكلمة من الممثلين المنتخبين من الشعب فى البرلمان، كما سبق ان بينت.»

ولم يطل بى المقام بعد ذلك ، فأستأذنت شاكرا حفاوتهم ، وخرجت وأنا اسائل نفسى :

ماذا يريد من يرفض حتى مثل هذه العلاقة ؟

وظل هذا السؤال حائراً فى ذهنى السنوات ... الى أن قام الرئيس جمال بزيارة السودان فى أواخر عام ١٩٦٠ وأدلى فى احدى خطبه بتصريح جاء فيه : أن السودان الحر المستقل هو سند للجمهورية العربية المتحدة الحرة المستقلة ... وأن الجمهورية العربية المتحدة الحرة المستقلة هى سند للسودان الحر المستقل ... آنذاك أخذت أقول لنفسى : هل هذا ما كان يرمى اليه الرئيس جمال .

التقاء الاحزاب السودانية

فى ٦ يناير من عام ١٩٥٤ حضرت اجتماعا دعا اليه الصاغ صلاح سالم فى رئاسة الجيش المصرى بالخرطوم بوصفى ممثلا للحزب الوطنى الاتحادى ، وكان معى من ممثلى الحزب السيدان اسماعيل الازهرى ومحمد نور الدين . كما حضر ممثلو أحزاب الامة والجمهورى الاشتراكى والحزب الوطنى الذى يرأسه سيادة الشريف عبد الرحمن الهندى . حضر عن حزب الامة السيدان الصديق المهدى وعبد الله خليل

وحضر من الحـزب الجمهورى الاشتراكى السيد ابراهيم بدرى ومن الحزب الوطنى المذكور السيد يحيى عبد القادر .

وقد سبقت هذا الاجتماع اجتماعات فردية انفرادية متعددة ... وكان الهدف هو تذليل العقبات التى وضعها الانجليز فى طريق المفاوضات المصرية البريطانية لحل مشكلة السودان فيما يتصـل بمسألتى الجنوب والجلاء وموافقة كل الاحزاب على ذلك .

لقد كان الانجليز يرون وضع صيغة تعطى الحاكم العام سلطة خاصة بجنوب السودان تجعل لهذه المنطقة من أرض الوطن وضعا خاصـا ، كما كانوا يعارضون فى الجلاء القصير الأجل وفى السودنة السريعة بحجة غريبة وهى تخوفهم من حدوث انهيار فى مختلف المرافق . وكان الصاغ صلاح سالم يذكرنا بالظروف التى يجتازها القطران (مصر والسودان) وكان يقول فيما يشبه الضراعة ان هـذه الفرصة الدولية لو افلتت ولم ينتهزهـا القطران فلن تعود ، وسـوف تكون المسئولية التاريخية على المجتمعين ، وانها لمسئولية ثقيلة رهيبة .

وقد غضبت يوم ذاك غضبا شديدا وخاطبت الحاضرين بعبارات حاولت ان تكون صريحة ومثيرة وقلت لهم فيما قلت أنا لو اختلفنا اليوم لما استطعنا أن نواجه الشعب غدا . وقلت لهم هل قـدر لنا ونحن قادة البلاد واصـغرنا تجاوز الاربعين ان يعلمنا الوطنية شـاب فى الخامسة والثلاثين قادم من مصر ؟

وشعرت بما يشبه الخزى من الموقف المتعنت بغير مبرر الذى كان يقفه البعض . وكنت أحيانا لا أصـدق سمعى ، وان ذاك المتكلم كان سودانيا لشدة تخاذله وتنكره لبنى جلدته وشعوره بالضعف والقصور .

وكان يوم الخميس ٨ يناير أوشك أن ينصرم .. وقد أصبح موقف ممثلى الاحزاب حول هذين الامرين ــ السودنة والجلاء العاجل ، موقفاً

متنافرا ومتباينا بين الاسراع والتدرج • وكان اليأس شاملا •• وقد رفع الصاغ صلاح سالم يده وقال انه ليحز فى نفسه أن يصرح بأن الاحزاب السودانية قد فشلت فى الاتفاق •• وقال ان هذا الخبر سوف يرضى عنه الانجليز رضاء تاما ولكنه سينزل نزول الصاعقة على الوطنيين فى مصر والسودان •

ولكننى لم أكن من رأى الصاغ صلاح •• كنت مؤمنا بضرورة الاتفاق وغير يائس من الوصول اليه وقلت فى ضراعة ان الله يأبى ان نعلن هذا الفشل • ورجوت الحاضرين فى حرارة ان يعطونا مهلة وطالبت بارجاء الاجتماع الى يوم السبت ١٠ يناير •

وخرجت من الاجتماع وأنا اضمر أمرا • لقد اتصلت بالزعيمين الدينيين الجليلين وتحدثت اليهما فى هذا الموضوع ، واتصلت برجال الحزب الجمهورى الاشتراكى وتحدثت اليهم أيضا •

وجاءنى السيدان زين العابدين صالح والدرديرى نقد وقالا ان السيد ابراهيم بدرى لن يحضر اجتماع السبت فقلت لهما ألستما من الحزب الجمهورى الاشتراكى ؟ ألستما الآن ممثليه فما المانع ان تنوبا عنه فى التوقيع ما دمتما مؤمنين بصحة ما ستوقعان عليه ؟ وفى اليوم المحدد للاجتماع حضر السيدان زين العابدين والدرديرى نقد ووقعا الاتفاقية مع بقية الاحزاب واعلنت الصحف ودور الاذاعة ووكالات الانباء هذا الاتفاق • فى دوى رائع لم تسمع خلاله النغمات النشاز • لقد وقع على هذه الاتفاقية من جانب الحزب الوطنى الاتحادى السيد اسماعيل الازهرى والدرديرى محمد عثمان والسيد محمد نور الدين وعن جانب حزب الامة السادة الصديق المهدى وعبد الله خليل • وعن جانب الحزب الجمهورى الاشتراكى السيدان زين العابدين صالح والدرديرى نقد ومن جانب الحزب الوطنى السيد يحيى عبد القادر •

ووالى ممثلو الاحزاب بعد ذلك اجتماعاتهم ونسقوا جهودهم

وعملوا كاليد الواحدة . وأرسلنا مندوبين للجنوب للدعاية للوحدة الوطنية وبذلنا ما استطعنا من جهد لاحباط مساعى الاستعمار ووجدنا من بعض الجنوبيين وطنيين مخلصين يعملون معنا قلبا وقالبا .

اننى شديد الاعتقاد بأن تلك الاجتماعات وما أسفرت عنه من اتفاق بين الاحزاب كأن أخطر مرحلة فى قضية السودان وكان نقطة التحول التى اتخذنا منها طريق السلامة والنصر الذى أوصلنا فى النهاية الى هدفنا الأصيل ، ألا وهو الحرية والاستقلال ، وان الاعتراف بالجميل ليقتضينى أن أذكر بالشكر والتقدير المجهودات المضنية التى بذلها [illegible]دان صالح سالم وعبد الفتاح حسن فى التوفيق بين الاحزاب ،

أولا : — موضـــوع الجنوب — يوافـــق الجميـــع على الاقتراح المصرى الآتى : —

« أى قرار تتخـــذه اللجنة ويرى الحاكم العـــام انه يتعارض مع مسئولياته ، أو أى تشريع اقره البرلمان السودانى ويرى الحاكم العـــام انه لا يتفق ، وبدء ضمان العـــدالة والمســـاواة فى معاملة كل ســـكان المديريات المختلفة بالسودان على انه يجب فى أى من تلك الحالتين أن يرفع الأمر الى حكومتى مصر وبريطانيا على أن يصل رد الحكومتين فى خلال شهرين من الاخطار الرسمى ويكون قرار اللجنة أو التشريع الذى أقره البرلمان ملغى اذا اتفقت الحكومتان على خلاف ذلك .

ثانيا لجنة الحاكم العام

(أ) تقوم فورا عقب اعلان الدستور وقبـــل اجراء الانتخابات

(ب) طريقة تعيينها كما جاءت فى المذكرة المصرية للحكومة البريطانية

(ج) تحل هذه اللجنة مجتمعة محل الحاكم العام وقت غيابه برئاسة العضو المحايد (الهندى أو الباكستانى) .

ثالثا السودنة

(أ) يضاف الى الفقرة الخاصة بذلك من المذكرة المصرية ما يلى :

عندما يقرر البرلمان السودانى وقت المصـــير فى خـــلال المدة التى اقصاها ثلاثة سنوات ، فيلزم استبدال ما تبقى من موظفين بريطانيين أو مصريين بعناصر أخرى تقررها الحكومة السودانية وهذا فى حالة عـــدم توافر العناصر السودانية الكافية .

(ب) يحذف من الفقرة (٢) جملة (موافقة الحكومتين القـــائمتين بالتصفية) .

(ج) يشطب من الفقرة (٣) من المذكرة ، الجملة (عنـــد تصديق

الحكومتين القائمتين بالتصفية) على تاريخ انتهاء فترة الانتقال)
وتستبدل بالجملة (عند انتهاء فترة الانتقال)

رابعا الانتخابات

تكوين الانتخابات مباشرة فى كل السودان ما كان ذلك ممكنا وعمليا وتقرر اجراء هذه الانتخابات اللجنة التى ستشرف على اجراءاتها الواردة فى المذكرة المصرية .

خامسا جلاء الجيش الاجنبى

(أ) يتم سحب القوات البريطانية والمصرية من السودان قبل اجراء انتخابات الجمعية التأسيسية التى ستقرر مصير السودان كما جاء فى المذكرة المصرية .

(ب) عندما يتم سحب القوات العسكرية البريطانية والمصرية يوكل أمر الامن الداخلى للحكومة السودانية القائمة وقتئذ من يوم اتمام الجلاء حتى انتهاء تقرير المصير . ولا يكون للحاكم العام أى سلطان خلال هذه الفترة وقد اتفقت الاحزاب السودانية والموقع مندوبوها على هذه الوثيقة ان تكون النقاط المتقدمة أساسا للدستور السودانى للحكم الذاتى .

وبعد ذلك اجمعت هذه الاحزاب على مقاطعة الانتخابات التى تجرى فى ظل أى دستور غير هذا .

كما اجمعت الاحزاب على ان تجتمع لتنظيم وسائل المقاطعة وتنفيذها اذا ما حدث ذلك . وكان الذين وقعوا على هذا الاتفاق هم :ـ

عن حزب الامة : السادة صديق عبد الرحمن المهدى ـ وعبد الله خليل وعبد الرحمن على طه وعن الحزب الجمهورى الاشتراكى السادة :

زين العابدين صالح ــ والدرديرى محمد احمد نقد وعن الحزب الوطنى الاتحادى السادة : اسماعيل الازهرى ومحمــد نور الدين والدرديرى محمد عثمان وعن الحزب الوطنى يحيى عبد القادر ــ كما وقع عليهـا السيد الصاغ صلاح سالم .

فى لجنة الحاكم العام

فى عام ١٩٥٤ اخترت عضوا بلجنة الحاكم العام ممثلا للحزب الوطنى الاتحادى الذى انصهرت فيه كل الاحزاب • وقد سبقت تعيينى مناورات ضخمة من الانجليز ••• واقول الانجليز ولا ازيد •

فقد رشح لعضوية اللجنة شخصان احدهما كان السيد ابراهيم احمد عن حزب الامة ولم يكن محل اعتراض • ولكن اختيار شخص آخر لم يوافق عليه الحزب الوطنى الاتحادى أثار الكثير من اللغط والكثير من الجدل • وفى النهاية وتحت ضغط شعبى عظيم وباكتشاف الاعيب الانجليز تم ترشيحى لهذا المنصب •

وفى الوقت الذى كانت فيه المشاورات والمناورات حول الترشيح دائرة ، زارنى المستر سلوين لويد وزير الخارجية البريطانى فى دارى عندما وصل الى الخرطوم ومكث بها أياما • وقال لى : اهنئك بثقة شعبك • لقد ارسلنى المستر تشرشل لكى اتحرى • اذ بلغه ان ترشيحك كان بضغط من المصريين لا برغبة الشعب وقد اتصلت عند وصولى بالاحزاب والسادة رؤساء الطوائف الدينية وبعض أفراد الشعب فلم أجد اعتراضا عليك من أحد بما فى ذلك الحزب المعارض لحزبك • فشكرته على كلامه ثم قلت ولكن هناك أناسا لا يريدون هذا التعيين فاستفسر وهو يقول من هم ؟ اجبت : الانجليز المحليين اذ لو كان هؤلاء الانجليز قد نقلوا لكم الحقائق لما اضطررت أنت لكى تتعب لتلتمسها بهذه الرحلة الطويلة • وبدا انه لا يريد ان استرسل فى الحديث عن مواطنيه بالسودان • وقال : اننى أرى ان نعتبر هذا الموضوع منتهيا واليك تهانى على الاختيار •

« وهنا باغتنى المستر سلوين لويد بقوله وما رأيك فى المشكلة بيننا وبين المصريين فى قناة السويس فقلت له ان كان الخلاف بينكم كما

أعلم منحصر فى نقطتين وهما رجوعكم لقناة السويس عند ظهور شبح حرب عالمية وبقاء الاخصائيين منكم بملابسكم الرسـمية فانى أرى ان كلا هاتين النقطتين محلولتان عمليا لانه اذا نشبت الحرب العالمية فالمصريون يحتاجون تلقائيا للمساعدة فى الدفاع عن القناة أما وجود جنودكم قبل نشوب الحرب بملابسهم الرسمية فهذه مسألة شكلية لايجب ان تتمسكوا بها اذ ان الغرض من وجودهم هو العمل لا الزى الذى لا يضركم بل يضر بالمصريين الذين يعتقدون بحق ان جنودكم لم يخرجوا من القنـاة فنظر الىَّ المستر سلوين لويد وهو يتحرك للانصراف قائلا لو ان هذه المشكلة بيدى وبيدك لحللناها على هذا الوضع فقلت له انهـا لن تكون بيدى وأرجو ان تحلها أنت وهى بيدك .

صدر بعد ذلك مرســوم التعيين باعضاء لجنة الحاكم العـام من رئيس الجمهورية المصرية حسب نصــوص الاتفاقية . وبصـدور ذلك المرسوم بدأنا فعلا فى مزاولة الحكم الذاتى ... واتخذ السودان طريقه نحو المستقبل الكبير .

السودان ومستوى الادارة

تكونت لجنة الحاكم العام من السيد ابراهيم احمد ومنى ممثلين للاحزاب السودانية ومن السيد حسين ذو الفقار ممثلا لمصر ومن السير جرافتى اسمث ممثلا لبريطانيا . ورأس اللجنة بحسب الاتفاقية عضو باكستانى هو السيد ميان ضياء الدين .

وشرعنا فى عملنا التاريخى العظيم . ولقد كان هدفنا نحن السودانيين منذ بداية قيام اللجنة ان نعمل على تنفيذ السودنة بأسرع ما يمكن .

كنا نريد ان نجرد البلاد من نفوذ البريطانيين ، ونبعدهم عن مرافق الدولة لكى نحصل على الاستقلال الصحيح .

ولم نكن نبالى بغضب الغاضبين أو تهديد المهـددين أو مخاوف الاصدقاء أو ادعاءات الخصوم .

كان أمامنا هدف خطير ولم يكن ثمة بد من تحقيق هذا الهدف .
ولما رآنا السير جرافتى اسمث نسرع فى انجاز السودنة قال فى أحد اجتماعات اللجنة الاخيرة ، انى أحب أن اذكركم أنه بتعجلكم بالسودنة وليس بين السودانيين الفنيون والاخصائيون الاكفاء ولا العقليات الادارية الكبيرة ذات التجارب انما تهبطون بمستوى الادارة فى بلادكم ولن تكون مشكلتكم فى المستقبل هى كيف يخرج البريطانيون كما تفعلون اليوم ولكن كيف يعودون .

وتوليت الرد عليه فقلت له : لا سامح الله ! ولكننا نوافقك بان السودانيين لا يملكون بعض الصفات التى ذكرتها لان أغلبهم لم يعطوا التعليم اللازم لها ولا الفرصة للممارسة وليس هذا ذنبهم ولكن قد وضع أمامهم اعلى هدف وهو الاستقلال وما لم تكمل السودنة فلن يكون الى الاستقلال من سبيل . ولذلك فنحن السودانيين مضطرين للمضى على الشوك لكى نصل الى هدفنا .

نعم ان مستوانا الادارى قد ينزل ولكنه ينزل ليرتفع فيما بعد على أيدى أبنائه المخلصين دون ان يحتاج الى أجنبى . وهنا اعترف السير جرافتى اسمث بان لنا الحق فى الاسراع ومضينا فى سودنة كل المصالح فى أقرب وقت وكان الجيش فى مقدمة من سودنوا فى بضعة أيام رغم رجاء القائد الانكليزى اسكونى لابقائه أياما معدودات ولكن لم يقبل رجاؤه لأن وزير الدفاع آنذاك البكباشى خلف الله خالد كان مصراً على الاسراع فى سودنة الجيش دون امهال .

اللجنة والحاكم العام

وضح منذ الوهلة الاولى لتعيين لجنة الحاكم العام ان السير روبرت هاو الحاكم العام لم يكن راضيا عن قيام هذه اللجنة . وكان هذا طبيعيا بالنسبة لحاكم كان مطلق التصرف ، واسع السلطات يعطيه القانون حقوقا خيالية لم يتمتع بها ملك من ملوك القرون الوسطى . وذلك لأن الاتفاقية كانت تشرك اللجنة فى سلطاته وتحد منها .

فبدأ فى التعبير عن شعوره العدائى نحو اللجنة بتصرف كان غريبا شاذا استاء له كل الاعضاء باستثناء العضو الانجليزى بطبيعة الحال . فقد جعل مقر اللجنة بعيــدا عن السراى ، وفى مكان يفقد مظهر النفوذ وجــلالته وهيبته .

وحسبك ان هذا المقر كان من المبانى العتيقة وأمامه دكان مكوجى وحوله منازل لسكنى الاهالى . وواضح أنه أراد بهذا الاقصاء المبين ان يؤكد للناس انه لا يزال صاحب القوة والنفوذ دون شريك أو رقيب وان السراى وحدها هى مقر السلطة العليا وان وجوده بها دون منافس يعبر عن هذه الحقيقة .

وقد عارضت معارضة شديدة فى هذا الموضوع ، وقلت ان السراى هى المقر الطبيعى للجنة فان مجلس الحاكم العــام السابق كان مقامــه السراى .. وان عملنا المشترك مع الحاكم العــام يقتضى ان نكون الى جانبه لان اللجنة تكون جزء فعالا منه .

وعندما رأيت أن كلامى لم يؤخــذ به كدت اســتقيل لولا اننى راجعت نفسى .. ورأيت ان هذه الناحية الشكلية فى اللجنة لن تضيرنا فى شىء ما دمنا نستطيع عن طريق السلطات المخولة لنــا ان نخدم بلادنا وان نوقف الحاكم العام (والانجليز من ورائه) وكل اجــراء يتنافى مع مصلحة البــلاد .

والواقع ان تصرف الحاكم العــام العــدائى لم يكن له التــأثير النفسانى الذى كان يتوقعه على الجماهير . فقد عرف الناس من وقائع الجلسات التى تسرب بعضها الى الصحف وخاصة فيما يتصل بالسودنة اننا نحن أعضــاء اللجنة لم نكن أمعات واننــا جنبنا بلدنا شرا كثيرا وكسبنا لها خيرا وفيرا .

وما كان ليؤثر على أعمالنــا ذلك المقر أو أى مقر ســواه حتى لو وضعنا تحت شجرة فليست العبرة بالمكان بل ما يستطيعه السكان .

غير ان هذا الاقصاء المادى لم يشبع النهم البريطانى للتقليل من أهمية اللجنة فوضع السكرتير الادارى قائمة بنظام الاسبقية (البروتوكول) فى الحفلات الرسمية وضع فيه أعضاء لجنة الحاكم العام فى ذيل القائمة وكانت الاسبقية الموضوعة هكذا : ١ ـ الحاكم العام ٢ ـ رئيس القضاء (الانجليزى) ، قاضى القضاة ٣ ـ رئيس الوزراء ٤ ـ رئيس مجلس النواب ٥ ـ رئيس مجلس الشيوخ ٦ ـ القائد العام (الانجليزى) ٧ ـ رئيس لجنة الانتخابات ٨ ـ اعضاء لجنة الحاكم العام !

كان الترتيب الطبيعى لوضع اعضاء لجنة الحاكم العام فى البروتكول أن يكونوا بعد الحاكم العام مباشرة لانهم فى واقعهم بل ومفهومهم القانونى جزء منه اذ هم يشتركون معه اشتراكا فعليا فى رئاسة الدولة .

غير ان الوضع الذى ووجهنا به نحن أعضاء اللجنة كان يختلف ... لقد كنا فى ذيل القائمة ، مما اشعرنا بان ثمة قصدا فى التقليل من قيمتنا والتهوين من شأننا . ولم يكن هذا ليرضينى ... بل لم يكن هذا محتملا على الاطلاق ولذلك فقد سارعت وكتبت الى رئيس اللجنة الخطاب التالى:

نص الخطاب

تحريراً فى ٢٦ يونيه ١٩٥٣

السيد رئيس لجنة الحاكم العام

اننى اشعر بأن كشف الاسبقية (البروتوكول) الذى صدر حديثا من قبل السكرتير الادارى بالنيابة بموجب تعليمات الحاكم العام أمر يجب الا يمر دون تعليق أو تحد من هذه اللجنة .

ان الاساس الذى بنى عليه ترتيب الاسبقية كما ورد فى ذلك الكشف لم يفسر .

وكم كنا نود لو انهم فسروا لنا ذلك الاساس .

ويبدو ان القاعدة التى بنى عليهـا كشف الاسبقية كانت درجات أعضاء اللجنة فى وظائف الحكومة ، وهـذا مذهب لا نشاركهم فيـه ، كما ان الموقعين على الاتفاقيـة (ممثلى الحـاكم الثنائى) ــ بالتأكيد لم يقصدوا أو يهدفوا اليه .

وانك ولا شك توافقنا على النظر الى هـذه اللجنة كجزء مكمل للحاكم العام فى وظيفته وسلطته ... وعلى هذا الوضع يجب ان تكون اللجنة مقرونة به دائما . وكان من الطبيعى لهـذا ان نتوقع ان تـكون مكانه اللجنة فى كشف الاسبقية بعد الحاكم العام مباشرة .

ولهذا فاننى اعتقد ان من واجب اللجنة ان تثير هذه المسألة وان تلفت نظر الحاكم العام والدولتين الموقعتين على الاتفاقية الى المغـزى السياسى لهذا الامر (الاسبقية) الذى ما كان يكون بهذه الاهمية لولا تلك الناحية السياسية .

ان وضـع اعضاء اللجنة فى تلك القائمة وان لم يكن ذا أهميـة شخصية تذكر بالنسبة للاعضاء وقد كان فى الامكان تجاهله من ناحيتهم الا انه اكثر أهمية من الناحية العامة .

ان الوضع الحالى انما يشير ضمنيا الى أن اللجنة قد زحزحت الى مكانة ثانوية اننى لست منزعجا على مراكزنا الشخصية لان هـذا أمر لا يهمنا كاشخاص ولكن فىجميع المناسبات الرسمية التىيحضرها أعضاء اللجنة بصفتهم هذه، يتحتم انتكون أسبقيتهم بعدالحاكم العام مباشرة .

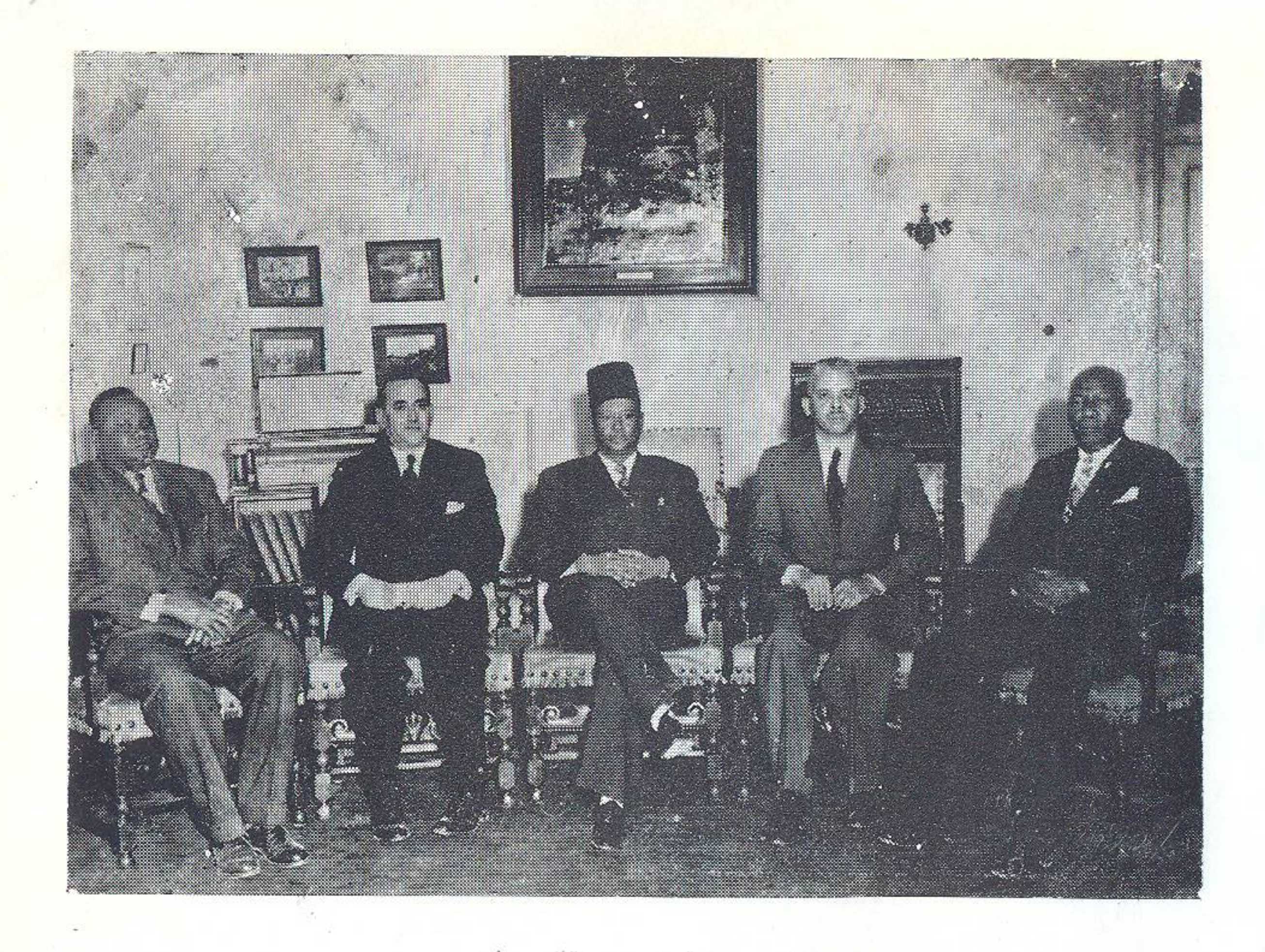
وختاما فاننى أرجو ان يعرض هذا الامر فى اجتماع اللجنة القادم.

الدرديرى محمد عثمان

ولم يعرض هذا الخطاب على اللجنة الا بعد أن كتبت استعجالا للرد . وفى الجلسة السابعة من الدورة الرابعة للجنة وهى التى عقدت فى ١٦ سبتمبر ١٩٥٤ ابلغ رئيس اللجنة الاعضاء بانه قد نقل الى الحاكم العام رأى اللجنة فى مسألة الاسبقية وان الحاكم العام قد وافق على ان تحتل اللجنة مكانا خاصا يعادل مكانة السفراء الاجانب .

وانه بناء على ذلك قد تقرر ان يدخل على أمر الاسبقية حاشية تقول : بأن يجىء مكان اللجنة بعد الحاكم العام مباشرة .

كما اخبر الرئيس أعضاء اللجنة بان المشكلة الوحيدة التى اعترضتهما هى تحديد أسبقية اللجنة بالنسبة للسيدين الجليلين ... وطلب من اللجنة ان تبدى رأيها عما اذا كانت تريد ان تكون متقدمة على السيدين أم يتقدماها . فأجاب العضوان السودانيان (ابراهيم احمد والدرديرى محمد عثمان) انهما يرغبان فى أن تكون اسبقيتهما بعد السيدين . وقد وافق على ذلك بقية الاعضاء وهكذا سار الترتيب فى الاسبقية على هذا الوضع المعدل .



مجلس السيادة لجمهورية السودان

من اليمين ـ احمد محمد صالح ـ احمد محمد يس ـ الدرديرى ـ عبد الفتاح المغربى ـ سريسيو ايروا

فى مجلس السيادة

المجلس يملك ولا يحكم

كنت امثل فى مجلس السيادة طائفتى الختمية والانصار .

وعندما شغلنا مناصبنا كاعضاء فى مجلس السيادة نحن الخمسة احمد محمد صالح ، واحمد محمد يس ، وعبد الفتاح المغربى ، وسرسيو ايرو وشخصى .. كنا نعتقد ان لدينا ما نصنعه .. غير اننا وجدنا بالممارسة ان الدستور سلبنا كل شىء .

لم نكن نملك الا ان نوقع ... اعنى الا ان نوافق على كل ما يرسله لنا مجلس الوزراء أو بالعبارة الدستورية نفسها كنا نعمل وفق مشورة مجلس الوزراء .

استغفر الله بل كان لنا شىء ؟ ؟ .. هو ان ننصح .. كانت لنا النصيحة ولم تكن لنا سلطة النقض أو الفيتو .. لم نكن نملك سلطة المبادأة أو المبادرة بعمل ، كنا مجرد رمز . وقد عرفنا وضعنا ولم نتمرد عليه لان هذا الوضع ثابت فى صلب الدستور الذى ارتضته البلاد ، وبه حصلنا على استقلالنا وقد نصحنا كلما كان هنالك موضع للنصح

أبنت لهم نصحى بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد !

وسرنا بالمجلس فى هدوء . لم تحدث أزمات . كل خلاف كنا نرجع فيه الى نص القانون ، والقانون واضح صريح ليس فيه ابهام .

كنا جميعا نحن الخمسة رجالا قد بلغنا سن النضوج ومررنا بالتجارب التى تجعل للعقل السيطرة على كل أفعالنا .. لا يؤمن واحد منا بالتهريج ، أو التهويش أو الضجات الجوفاء .

لا تهمنا فى الدرجة الاولى اشخاصنا وانما تهمنا ان تسير السفينة قدما وان يتحقق الاستقرار ، وان تصل البلاد الى غايتها •

فاذا صح بعد ذلك القول ان كل ما تم من انجازات فى عهد مجلس السيادة يرجع فضله الى مجلس الوزراء •• فان العدالة تقتضى ان يقال كذلك ان مجلس السيادة برىء تماما من تبعة كل ما حدث من اخطاء ارتكبها مجلس الوزراء •

وقد يكون وضع مجلس السيادة بهذا الشكل صورة للديمقراطية المكتملة العريقة التى تمارسها بريطانيا أم الديمقراطيات فى العالم ، فتجعل من رأس الدولة رمزا يملك ولا يحكم • ولكن لا مفر من القول بان جميع هذا الوضع لم يكن بالوضع الصحيح فى قطر كالسودان ، يخطو أول خطواته فى النظام الديمقراطى ذلك ان هذا الوضع فى كماله نظريا يتسم بعيب واضح ، هو عدم الحيلولة دون الديكتاتورية البرلمانية •

ترى هل لى ان اذكر انه لو كان الدستور قد اعطى مجلس السيادة سلطات اكثر سعة لتغيير وجه التاريخ فى الفترة الدقيقة التى مررنا بها ؟

أو هل كان يحصل ذلك اذا تدخل المجلس من تلقاء نفسه متجاهلا الدستور ؟

فى رئاسة المجلس

كنا نحن أعضاء مجلس السيادة نتناوب الرئاسة فيتقلدها كل منا شهرا افرنجيا كاملا • وكان من حسن حظى ان وقع أحد أدوارى فى رئاسة المجلس عند الاحتفال بأول عيد للاستقلال فأعددت خطابا للمناسبة السعيدة وكان أول خطاب من نوعه (لأنه أول خطاب من أول رأس دولة سودانى فى عيد الاستقلال) وقد رأيت ان أسجله هنا لاؤكد مرة أخرى فهمنا لوضعنا الدستورى ولانقل صورة لروح التكاتف والتعاون التى سادت البلاد آنذاك : ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله ...

نحمده فنشكره على نعمة الاستقلال الذى ناله الشعب بقليل من التضحيات وبكثير من العناية الآلهية (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) .

فها انتم أيها المواطنون بعون الله وتوفيقه تجتمعون فى هذه الدار لاول مرة وانتم أسيادها أحرارا ، فمنكم الحاكم ومنكم الرئيس ومنكم الوزراء والجميع يتشرفون بانهم خدام الشعب يأتمرون بأوامره ويسعون لما فيه خيره وسعادته وقد توالت علينا نعم المولى فقامت الوزارة القومية يرعاها الشعب ويباركها السيدان الجليلان فى وئام ووفاق تام) فالتقت الايدى وتقاربت القلوب ولا شك ان هذا الاجتماع سيزيدنا قوة وايمانا على ايمان لنصون حريتنا ونبنى دولتنا الجديدة على العدالة الاجتماعية الشاملة . ان الاستقلال أيها المواطنون قد أوكل الينا أمورنا سليمة وهذا يستوجب ان نتكاتف ونتقارب وننبذ الاحن والاحقاد حتى نكون أهلا لحمل هذا العبء وحتى نوفر لشعبنا ما يصبو اليه من عزة وكرامة واستقرار وطمأنينة فعلى الجميع ان يعملوا كل فى محيطه وليؤد كل منا امانته وليتق الله ربه فلا كسل ولا تواكل واثقين بان الله الذى وفقنا فى البداية سيوفقنا فى النهاية ما دام رائدنا الاخلاص لسعادة هذه الامة ورفاهيتها ، أما نحن اعضاء مجلس السيادة فقد قطعنا لكم عهدا من قبل ان نكون حراسا أمناء على استقلال البلاد وحريتها وان نحرص كل الحرص على اجتماع الكلمة ولم الشمل وانا على ذلك العهد باقون وله حافظون (ان العهد كان مسئولا) .

وختاما أرحب بكم جميعا خصوصا أولئك المواطنين الذين جاءوا من الاقالنم وآمل ان ينقلوا صورة مما رأوه فى العاصمة لاخوانهم الذين لم تمكنهم الظروف من حضور هذا الحفل والسلام عليكم ورحمة الله .

هذا ولا يفوتنى أن اذكر انه فى أول عهد الاستقلال ظهرت ظاهرة انفصالية من اخواننا الجنوبيين وهو ما كانوا يسمونه بالفدريشن وقد ادخل هذه الفكرة الخبيثة الى رؤوسهم القسس المبشرين وقد كانت تكون طعنة نجلاء فى صميم الاستقلال لو اذن الله لها أن تتم ولكنه سبحانه كان يخصنا دائما بعنايته وجميل رعايته وكان كثيرا من اخواننا يسعون جادين فى تحطيم هذه الفكرة وتجنيب البلاد شر الانقسام ولا ادعى انه كان الدور الاول لى فى تحطيمها والقضاء عليها ولكنى كنت من وقت لآخر أثناء رئاستى لمجلس السيادة أدعو بعض اخواننا الجنوبيين فى منزلى كالسيد استانس لاوس بياساما وزميلى السيد سيرسيو ايرو وغيرهم وأتحدث اليهم فى خطأ الفكرة مدعما ذلك بالحجج والبراهين والمنطق وقد اقتنع أغلبهم حين ذلك بما كنت أنصح به وتجنبنا شر الفتنة والانقسام •

العلاقات السودانية الاثيوبية

ان العلاقات السياسية بين السودان وأثيوبيا قديمة العهد ، ولم تنقطع الا فى عهود الاستعمار وهذه حقيقة لا يزال اخواننا الاثيوبيون يذكرونها بالخير ويشيرون اليها كلما مرت مناسبة ، فيبدون من الاعتزاز بتلك العلاقات الودية نفس ما نكنه ونبديه • وتوكيدا لذلك فقد تكرم صاحب الجلالة الامبراطور هيلا سلاسى واهدى لاعضاء مجلس السيادة بوصفه (مجتمعا) أول رأس دولة فى السودان الحر المستقل ، اهدى جلالته لكل من الاعضاء وشاح منليك الثانى العظيم الشأن وقلده لزملائى بيده الكريمة عند مروره بالسودان • ولما كنت متغيبا عن البلاد حينذاك فقد أوكل سفير جلالته بالسودان ان ينوب عن جلالته فى تقليدى ذلك الوشاح ، وقد شاءت مكارم معالى السفير السيد ملس ميخائيل عندوم ان يقدم لذلك بالخطاب التالى : ــ

سيدى رئيس مجلس السيادة ــ السادة اعضاء مجلس السيادة اخوانى الاعزاء •

انه لمن دواعى الغبطة والفرح ان اكون بينكم فى هذا الصباح

المبارك وانتهز هذه الفرصة السعيدة لكى اقلد باسم امبراطورى المعظم هيلاسلاسى الاول وشاح منليك الثانى العظيم الشأن للسيد الدرديرى محمد عثمان . والسيد الدرديرى محمد عثمان هو غنى عن التعريف فهو ابن أول سفير سودانى بعثه الخليفه عبد الله خليفة الامام المهدى طيب الله مثواه فى مأمورية سرية مهمة الى بلاط جلالة الامبراطور منليك الثانى فى تلك الايام العصيبة حيث كانت طرق المواصلات صعبة ومحفوفة بالمخاوف والمخاطر . وقد انجز السفير مهمته على أحسن صورة ورجع الى بلاده عزيزا مكرما من جلالة الامبراطور وحاشيته بسبب ما اتصف به من شيم كريمة واخلاق حميده واطلاع واسع ونية سليمة فى خدمة مصلحة البلدين وبذلك وضع السفير الأسس الاولى لحسن العلاقات ووثق عرى الصداقة والمودة بين البلدين ورسم الخطط الاولى للتمثيل السياسى الصالح الامين منذ حوالى ٦٥ سنة وبهذا نجد ان العلاقة الطيبة بين العائلة المالكة الاثيوبية وبين عائلة السيد الدرديرى محمد عثمان حاج خالد قد قامت منذ زمن طويل وأمد بعيد . وتقديرا لتلك الصداقة القوية الوطيدة وما قام به ابن ذلك السياسى العظيم فى تحرير بلاده وخدمة وطنه والمنزلة العالية التى يتمتع بها بين مواطنيه وعشيرته ان أمر امبراطورى المعظم ان يقلد السيد الدرديرى هذا الوشاح العظيم الذى ناله بجدارة واستحقاق وانى بالنيابة عن امبراطورى المعظم اقلد سيادتكم هذا الوشاح العظيم متمنيا لكم دوام الصحة وطول العمر ان شاء الله .

سفير اثيوبيا لدى جمهورية السودان

ملس مخائيل عندوم

ويهمنى ان أشير هنا الى اننى ما نقلت نص هذا الخطاب تسجيلا لما جاء فيه من نعوت تفضل بها قائله علىَّ وانما لما حواه من اشارة الى تاريخ تبادل التمثيل السياسى بين السودان واثيوبيا وهو تاريخ يجهله الكثيرون من الجيل الجديد . واتماما للوثائق التى تمكن المؤرخ من تبين الحقائق فقد رأيت أيضا ان انقل للقارىء ما حوته سجلات وزارة الداخلية السودانية بشأن تلك السفارة التى قام بها المغفور له والدى

بين المرحوم الخليفة عبد الله التعايشى طيب الله ثراه وبين جلالة امبراطور الحبشة آنذاك : —

« فى عام ١٨٩٦ بعث الامبراطور منليك الثانى جبرتيا يدعى احمد الطيب الى الخليفة عبد الله التعايشى خليفة الامام المهدى الكبير وحاكم السودان فى ذلك الحين يبدى رغبته فى اقامة علاقات ودية وابرام معاهدة صداقة بين السودان وأثيوبيا .

وقد تجاوب الخليفة مع هذه الرغبة ووافق على الطلب الا انه اشترط ان يتلقى رسالة مكتوبة توضح التفاصيل وتؤكد المعانى الواردة فى اقوال الرسول .

ولم يلبث الامبراطور منليك الثانى عقب عودة الجبرتى احمد الطيب وابلاغه اشتراطات الخليفة عبد الله ، ان بعث برسول آخر يدعى الحاج احمد الجبرتى وحمله رسالة مكتوبة أكد فيها ما سبق ان بينه الرسول السابق الجبرتى احمد الطيب من رغبة الامبراطور فى اقامة العلاقات الودية وقيام تعاون صادق بين البلدين .

وبناء على هذه الرسالة ، ووفقا للاتجاه السودانى الرامى الى تعزيز صلات المحبة والوفاق بين السودان وجاراته فقد عين الخليفة عبد الله محمد عثمان حاج خالد ليقوم بمهمة التفاوض وحمله رسالة مكتوبة وأخرى شفوية أوضح فيها الاسس التى يجب ان يبنى عليها الاتفاق وهى : —

١ — رفض كل تدخل أوربى فى شئون البلدين ، وعدم السماح للاوربيين بدخول الحبشة أسوة بما هو متبع فى السودان .

٢ — وقف الاعتداءات التى تقع فى الحدود .

٣ — فتح أسواق القلابات وهاشمى للانصار والاحباش على السواء .

وفى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٦ غادر السيد محمد عثمان حاج خالد أمدرمان فى طريقه الى اثيوبيا يرافقه الحاج احمد الجبرتى .

وكانت الرحلة شاقة عسيرة محفوفة بالمخاطر نظرا لوعورة الطرق وصعوبة المواصلات وعدم توفر أسباب الأمن .

وعندما وصل السيد محمد عثمان ورفيقه الى مدينة لبو قابل الرأس منقشا حاكم المدينة حيث شرح أمر الرسالة التى يحملها واتفقا على وقف الاعتداءات فى الحال .

وفى اديس ابابا قابل السيد محمد عثمان الامبراطور منليك الثانى واتفق معه على النقاط التى حددها الخليفة عبد الله . وفيما يلى ملخص لما دار بين الرسول والامبراطور من حديث : —

١ — قال الامبراطور انه لا علاقة له مع الاوربيين الا التجارة التى هى من مصالح البلاد وان ابطالها سوف يكون سيئا على البلدين عامة وأشد سوءاً على الحبشة خاصة بالاضافة الى أن معظم التجار الاوربيين قد عاشوا فى الحبشة لسنين طويلة وارتبطت مصالحهم بها .

٢ — أبدى الامبراطور منليك استعداده لقبول اشتراطات أخرى .. ثم عرض مساعدة الحبشة للخليفة بالجيش والسلاح فى حالة اغارة أى جيش أوربى على السودان .

٣ — وافق الامبراطور على فتح الاسواق السودانية والحبشية للتجارة بين الانصار والاحباش وأصدر أوامره للرأس منقشا لكى يبلغ الناس بأن الاحباش والانصار قد أصبحوا أصدقاء وان الاسواق قد اصبحت مفتوحة للجميع حتى امدرمان .

٤ — تساءل الامبراطور عما اذا كان من الممكن اطلاق سراح الاسرى المعتقلين فى أمدرمان فرد السيد محمد عثمان

بانه لا علم له بهذا الموضوع وانه لا يحمل اذنا للتباحث فيه •

٥ — قال الامبراطور : ان الايطاليين يحتلون كسلا وهى المنطقة التى يحكمها الرأس منقشا فاذا كنتم تريدون الاتصال به فانى سأتخذ الاجراءات لاخطاره بذلك •

ولما وافق السيد محمد عثمان على عرض الامبراطور طلب الامبراطور منقشا فى الحال وأمره بان يقدم أية مساعدات يطلبها (الانصار) ••• وهنا طلب السيد محمد عثمان ان يكتب منقشا للخليفة رأسا •

وعاد السيد محمدعثمان وقد رافقه رسول آخر من قبل الامبراطور منليك وقابل الرسول الخليفة عبد الله وتباحث معه بشأن الاسرى الاحباش وأبدى له شديد رغبة الامبراطور منليك واستعداده لارسال أى شيء يطلبه الخليفة ••• كما ان الامبراطور سوف يلجأ اليه اذا اعوزه شيء كذلك •

وقد وافق الخليفة على اطلاق سراح الاسرى وعبر عن سروره بنتيجة المفاوضات التى توصل اليها السيد محمد عثمان مع الامبراطور •

ثم كلف الخليفة الرسول بأن يبلغه ان (نور الفدرى) قد خرج عليه وانه استولى على بنى شنقول وطلب اليه القيام بتأديبه •

وفى عام ١٨٩٧ أرسل الامبراطور منليك رسولا آخر يسمى محمد الطيب ليبلغ الخليفة بانه قد ارسل جيشا كبيرا لمحاربة (نور الفدرى) وللمحافظة على الحدود كما رجا منه الا يصغى لأية اخبار تناقض مايحمله الرسول وان يعتمد على الصداقة التى بينهما • وانيكون يقظا فىمحاربة الاوربيين • وان لا يألو جهدا فى طردهم من بلاده •

وارسل الامبراطور للخليفة علما فرنسيا لكى يرفعه أمام الجيش اذا تقدم الانجليز لمحاربته مبينا له انهذا العلم سوف يمنعهم عنالتقدم•

غير ان الخليفة عبد الله رفض استلام العلم واعاده مع الرسول قائلا : انه اذا التقت الارض والسماء ضده فلن يرضى ان يكون تحت حماية أوربية .

هذا ما سجلته الوثائق المحفوظة فى وزارة الداخلية .. وهى تصور التفكير السودانى السياسى فى أواخر القرن الماضى وهو تفكير يلتقى فيه الماضى والحاضر على أساس وطيد من مصلحة السودان وخلق أبنائه وطباعهم ونزعاتهم الحرة .

نهضة المرأة السودانية

فى احدى دورات رئاستى لمجلس السيادة استقبلت عددا من عضوات الاتحاد النسائى فى دارى استجابة لطلبهن وتحدثت اليهن حديث الابوة وبعثت لهن رسالة توضح منهجى فى معاملة المرأة بوصفها أحد شقى المجتمع . وبما انى لا ازال على ذلك الرأى واتمنى ان يكون رأى الجميع فقد رأيت ان أدونه فى هذه المذكرات .

« قلت احييكن أطيب تحية واشفعها بكلمة صادقة جاءت أثر نظرة واسعة عميقة بعيدة عن جانبى الافراط والتفريط الذين يسوقان الى الخطايا والتمسك بالخطأ .

انكن قبل كل شيء مسلمات سودانيات تحافظن على أدب الدين وتحافظن على تقاليد الاسرة الصالحة ، وتحتفظن بالطيب القديم لا لانه قديم ولكنه مفيد وصالح .. كما ان هناك جديدا لا تأخذن به لانه غير مفيد وغير صالح . فمقياسنا فيما نأخذ وما ندع هو اعتبارات ديننا السمح واخلاقنا الكريمة وبذلك نساعد على حركة التقدم فى معترك الحياة الاجتماعية وتركيز محاسننا التى تصبح مظهر قوة وعنوان فضيلة ودليل الصلاحية للبقاء ، والبقاء فى هذه الدنيا للاصلاح سنة الحياة منذ الازل .

اننا لا نريد ان نتمسك بالقديم لمجرد أنه تراث الآباء والاجداد ، ولا الجرى وراء الجديد لانه وارد من الغرب الذى هو فى هذه الايام

مناط التقليد لدى كثير من الشعوب ولكننا نريد ان نتمسك بما ننتفع به ، نريد غذاء الروح وصلاح البدن ، والعتاد الذى يعيننا على القوة ويثبت شخصيتنا ويسدد خطانا ويمكننا من شق طريقنا فى عالم كله نضال وصراع ... تسود فيه شريعة الاقوى .

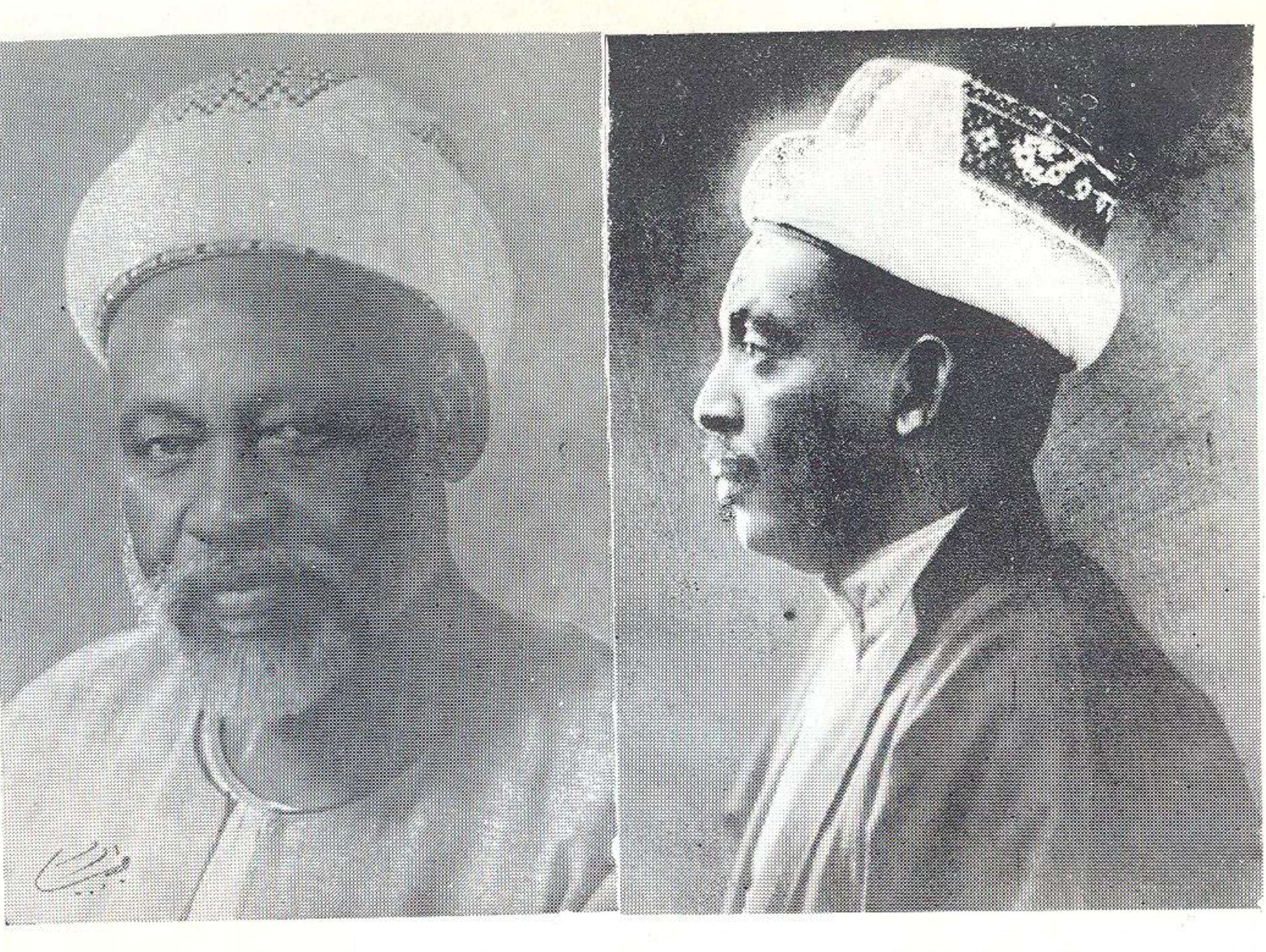
وخلاصة نصيحتى لكن يا طليعة المرأة السودانية المستنيرة ان تتمسكن بالكتاب والسنة المحمدية السمحاء وتقاليدكن واخلاقكن المتوارثة الصالحة الكريمة .

وتقبلوا منى هذه الهدية الكبيرة فى معناها وهى المصحف الكريم الذى أرجو ان يكون خير دستور لمنظمتكن وعونا لكن فى طريق الحياة المتشعبة ومع هذه الهدية الرمزية هدية أخرى مادية بسيطة تعبيرا عن معاونتى العملية لكن لكى تقفن فى عزة وكرامة تناضلن عن حق المرأة المشروع فى الحياة » .

وقد علمت أن هذا الخطاب لاقى من عضوات الجمعية قبولا حسنا وقابلنه كدليل على التشجيع .

والحق يقال اننى لا اقف ضد النهضة النسائية التى تهدف لخير المجموعة وتجعل من المرأة مواطنة صالحة ذات نفع للامة وللانسانية ولنا بالمسلمات اللائى برزن فى هذا المضمار فى التاريخ خير مثل، ولكننى أكره فى شدة وعنف واصرار الحركات النسائية التى يخرج المتمسكات بها عن حدود الدين والاخلاق والتقاليد الحسنة .

فالتبرج والتحرر اللذان يدفعان بالمرأة بعيدا عن المنزل ويسلكانها فى عداد الرجال ويفقدانها المعانى الكريمة التى تحيطها كالهالة ، غير مقبولين عندى اطلاقا ولا اقرها بل أحاربها كما احارب بنفس الدرجة تقليد المرأة السودانية للغربيات فى لبسها أو انطلاقها من قيود العرف والتقاليد . أما فى هذه الحدود فلتنهل المرأة من فروع العلم والمعرفة ما تشاء ، غير ناسية أو متناسية أن واجبها الاول هو بيتها كربة صالحة لتربية أبنائها ورعاية زوجها .



السيد على الميرغنى

السيد عبد الرحمن المهدى

كانت السياسة البريطانية تعتمد فى بقاء الحكم الاستعمارى فى السودان على التناقضات وفى مقدمتها الخلاف التقليدى بين طائفتى الختمية والانصار وبين رئيسى هاتين الطائفتين وكانت لا تألوا جهدا فى ايقاد النار بينهما والهاب روح العداء وتوسيع الشقة ٠

وعندما خرج البريطانيون كانوا يظنون أنهم وضعوا قنبلة زمنية سرعان ما تنفجر ذلك هو هذا الخلاف الطائفى ، الذى كانوا يعتقدون انه عميق الجذور ، وانه لا توجد قوة فى هذا الوجود تستطيع استئصاله فى زمن قصير ٠

غير اننى منذ عرفت الحياة العامة كان أمر هذا الخلاف يشغل خاطرى ... لم اكن اقبل هذه الوضعية الجائرة التى يريد المستعمر ترسيخها وكانت صلتى بالسيدين الجليلين دائما تحثنى وتشجعنى على ان أحاول عمل شىء ٠

كانت صلتى بالسيد على الميرغنى صلة صداقة ومحبة فى الله قامت على ابتغاء الخير والمصلحة للسودان واستمرت على هذا المنهاج وسوف تستمر ما دام فى العمر بقية ٠

وكانت صلتى بالسيد عبد الرحمن المهدى طيب الله ثراه صلة قوية ربطها التاريخ يوم ان جعل جدى حاج خالد أول المناصرين للمهدى والباذلين أنفسهم ونفيسهم فى سبيل الله والوطن ويوم كان والدى محمد عثمان حاج خالد أحد زعماء الحركة المهدية وامرائها وسفرائها وسياسييها العاملين ٠

وكان السيد عبد الرحمن المهدى يمحضنى الثقة ، ويعتقد فى الاخلاص ... وكنت أجد مثل ذلك بطبيعة الحال عند السيد على الميرغنى ٠

ومن هنا استطعت فى الساعة المناسبة ان انجح فأقرب الشقة بين

السيدين ووفقنى الله الى الجمع بينهما فى ذلك اللقـاء التاريخى العظيم الذى غير الى حـد كبير من مجرى الحوادث فى السـودان ، ووجهها وجهـة لم تكن فى حسبان اكثر المراقبين دقة حتى قال بعض السـاسة الانجليز الذين كانوا بالسودان ، لقد تحققت أحدى المعجزات بالسودان بالتقاء السيدين .

جئت فى احدى الليالى الى السيد عبد الرحمن المهدى رحمه الله فقابلنى السيد كعادته طلقا مستبشرا ورحب بى ترحيبا حارا ... وكان معنا فى المجلس السيد الصديق المهدى نجله الاكبر .

وقد بدأت حديثى مع السيد عبد الرحمن بالناحية التى اعلم يقينا انها تهزه من اعماقه وتفتح مغاليق قلبه ، فذكرته بواجبنا جميعا فى صيانة الاستقلال بعد ان حصلنا عليه بتضحيات وتوفيق من الله ... وان هذا الاستقلال لن يصان الا بالوحدة القوية ، وان هـذه الوحـدة لن تتم ويقدر لها البقاء والخـلاف بين السيدين يشـكل خطرا دائما يستغله المستغلون . واشرت الى ما يؤمن به الانجليز من انهم تركوا قنبلة زمنية تدمر السودان فى الوقت المناسب ، وهى هذا الخلاف .

واستمع الىّ السيد عبد الرحمن بكل جوارحـه وقال فى عبارات منقوشه الآن فى سويداء قلبى باصابع من نور — انى لا امانع فى هـذا اللقاء بل هو أمنية طالما تاقت اليها نفسى ولـكنها أمنية عسيرة التحقيق لان تحقيقها يجب أن يكون من طرفين لا من طرف واحد واذا قبلت فمن لى بأن يقبل الطرف الآخر .

قلت اننى سأتكلم مع الطرف الآخر فى هذا الشـأن للحصول على موافقته وأملى قوى فى الله الذى يريد بهذه البلاد خيرا .

وأسرعت فتحدثت الى السيد على الميرغنى فى الموضوع ولم احتاج الى كلام كثير لاقناعه فقد كانت الضروريات الوطنية أقوى من ان تخفى عليه . وفى الحال حدد ميعاداً كان اليوم التالى مباشرة لاستقبال السيد عبـد الرحمن فى منزله بحلة خوجلى ولم يطلع أحـد على ميعاد تلك

المقابلة أو على ما سبقها من مقدمات • ولم يكد يتقابل الزعيمان الجليلان حتى تركنهما منفردين فترة ••• ولايعرف الا الله حتىالآن ما دار بينهما•

ولكن هذا الاجتماع العاجل أسفر عن اتفاق تام سجل فى بيان اذيع للناس (أنظر آخر الصفحة) • وقد قد استلمته بيدى من أيديهما فور كتابته وتوقيعه •

وان عملى فى التقاء السيدين الجليلين هو من اعظم ما افخـر به فى حياتى •

واعلن النبأ ونشرته الصحف واذاعته وكالات الانباء • وتبادلته محطات الاذاعة العالمية وأحدث الضجة الكبرى التى كنا نتوقعها •

وكان وقعه فى بريطانيا وبين البريطانيين الذين عملوا فى السودان خاصة وقع المفاجأة المذهلة وأما وقعـه على محبى السيدين فكان بردا وسلاما ، أن هذا اللقاء كان لديهم بمثابة معجزة من المعجزات •

واننى بعد مضى كل هذا الوقت على اللقاء بين الرجلين العظيمين لحريص على الاتفاق بين الطائفتين وزعيميهما ايا كان فان اتفاق الطائفتين والبيتين هو صمام الامان لهذا البلد وقد ذهب بعض محبى السيدين الى القول لهما ان السرور والراحة التى لقوها فى هذا الالتقاء لا يجـدون لها مثيلا • وانهم سوف لا يختلفون حتى ان اختلف السيدان !

وفيما يلى ذلك البيان التاريخى العظيم الذى سبقت الاشارة اليه :

الآن وقد شاء الله ، فتحقق الأمل العظيم الذى ظلت تنشده البلاد منذ أمد • فالتقينا وتصافينا ابتغاء مرضاة الله والوطن •

يسرنا ان نعلن عزمنـا على الوقوف متكاتفين فى كل ما يعود على الامة السودانية الكريمة بالخير والسعادة والحرية والسيادة الكاملة •

اننا اذ نحرص على ان تجتاز البلاد هـذه المرحلة الدقيقة بطمأنينة وسلام الى مصيرها العظيم المأمول فى سبيل خدمة وطنهم العزيز وتحقيق

أمانيه الكبرى حتى يتوفر الاستقرار والطمأنينة الضروريتان فى هـذا الظرف العصيب .

ونرجو ان يتهيأ بذلك الجو الملائم لتعاون جميع أحبابنا ومؤيدينا على البر والتقوى والخير العام .

كما نأمل ان يمكن التقاء جميـع الاحـزاب فى الحال على قيـام حكومة قومية تكون صمام الأمان لكل ذلك : ونستطيع انقاذ البلاد من كل خطر متوقع .

والله المستعان والموفق لما فيه الخير والصواب .

١٩٥٥/١٢/٣ على الميرغنى ـــ عبد الرحمن المهدى

بعد التقاء السيدين ظلت العلاقة بينهما كما علمتها وثيقة وصادقة من الجانبين وعندما اثير موضوع رئاسة الجمهورية قلت لسيادة السيد على الميرغنى فى احدى جلساتى معه : انا اعلم انك لم تقبل الملك عندما عرضه عليك الانجليز ، فهـل أنت راغب فى رئاسـة الجمهورية الآن ؟ فأجابنى سيادته بقوله : طبعا لا . قلت لسيادته فما رأيك ان رغب فيها أخوك السيد عبد الرحمن ؟ فأجاب دون تردد . أنا لا أعارض فى ذلك على الا تكون فردية أو وراثية .

والى هنا منعنى وضعى الرسمى فى مجلس السيادة وظروف أخرى ان استمر فى التدخل بينهما متمنيا لهما التوفيق الدائم فى الوئام الذى هو صمام الامان فى هذه البلاد .

السيد على الميرغنى

لقد قدمت ان صلتى بالبيتين الكريمين بيت المهدى والميرغنى أحد العوامل الفعالة فى توفيقى فيما تم من التقاء السيدين الجليلين ولهـذا رأيت ان اذكر تاريخ صلتى بكل منهما ، فمن نعم الله علىَّ والائه التى تذكـر فتشكر ، ان جعلنى فى أسرة تحتفظ بخير الصـلات مع طائفتى الختمية والانصار ، مما كان له أثر فى ان اكون ذات يوم عاملا يعمـل

للتوفيق بينهما دون ان يشعر أحـد الاطراف بانني دخيل عليه أو يتهم اخلاصي وغيرتي .

أما صلتي بالختمية عامة والبيت الميرغني خاصة فقد انحدرت الى من بيت سوار الذهب جد والدتي الذي هو من هذا البيت في الصميم .

وولاء سوار الذهب ولاء قديم . وقد كان كل من جدي لوالدتي ابراهيم صالح سوار الذهب الكبير ووالده صالح يحملان لقب خليفة الخلفاء وعلاقتهما بالسيد الحسن الميرغني وابنـه السيد محمـد عثمان الميرغني ثم بالسيد علي الميرغني والسيد احمد الميرغني طيب الله ثراه من بعدهما مشهورة معروفة . وقد كان السيد احمد الميرغني صديقا حميما لوالدي زمن المهدية وكان سيادته يحدثني عنه كثيرا عندما كنت أزوره بكسـلا .

ومنذ ان تخرجت من كلية غردون في عام ١٩١٤ كنت وثيق الاتصال بالسيد علي الميرغني وقد كنت كثيرا ما اقرأ معـه الجرائد والـكتب وبرقيات رويتر ، وتتبع احداث الحرب الكبرى الاولى . ونمت هـذه العلاقة وازدادت على مر الايام قوة ووثاقة حتى يومنا هذا . انها صلة روحية متينة وصداقة مخلصة أمينه قوامها الصـدق والحق والعـدالة والواجب .

ولا ازيد فان هذه العلاقة الكبيرة ذات الاثر الواضح في مجرى حياتي : يحتاج الحديث المفصل عنها الى مراجعة طويلة لكل التطورات الوطنية والتاريخية منذ مستهل هذا القرن حتى العهد الاخـير وهو أمر مجاله واسع ويقتضي لاستيفائه الكثير من الوقت والكثير من الجهد ..

وقد شهدت لهذا الرجل مواقف وطنية وسياسية قد لا يريد سردها ولكنها كانت مصدر فخر واعتزاز عظيمين .

ولقد سمعته يقول للمصريين لا تطلبوا من السودان غير الصداقة وتبادل المنافع أيام ان كانت علاقة السودان بمصر موضع الكلام .

ولكن الانجليز لم ترضهم المواقف الوطنيـة التى كان يتخـذها سيادته ولعل مما يصور طرفا من ذلك ان اقص على القارىء ما دار ذات يوم بينى وبين المستر بنى (مدير المخابرات بالسودان) .

فى سنة ١٩٤٦ زارنى المستر بنى فى دارى ، وكان واضح الغضب وقال لى بعد مقدمة : اننا لم نتعب من أحد فى هـذا الكون مثلما تعبنا من السيد على . فقلت له لماذا ؟ فاجاب ان السـيد على الميرغنى كتب فى سفر اللواء الذى أصدرته حكومة السودان عام ١٩١٤ هذه الكلمات : ان كل مسلم ينظر الى تركيا باعتبارها قاعدة الخلافة الاسلامية ولكن اذا تجردت تركيا من هذه الصفة واتفقت مع الالمان فى أمور دنيوية ، فنحن غير راضين عنها .

واستطرد المستر بنى قائلا : ولم نكن راضين عن هـذه الـكتابة لضعفها فى تأييدنا بالنسبة للـكتابات التى نريدها والتى كتبها كبـار المسلمين فى العالم ولولا ان نشرها خير من اغفالها ، لمـا قبلنا بتضمينها ذلك السفر .

ومضى يقول : وفى عام ١٩٢٣ حين نشبت الحرب بين الملك الحسين وابن السعود طلبت الحكومة من السيد على الميرغنى وكان فى سنكات ، السفر الى الحجاز واقنـاع الملك الحسين برفـع العلم الانجليزى على (جدة) لكى تحميه بريطانيا العظمى .

وبدلا من ان يوافق السيد علي على هذا الطلب وبخنا .

وفى عام ١٩٢٤ عنـد نشوب الاضطرابات فى السـودان بسبب الابيض سافر السيد على الى دنقلا وبعثت اليه الحكومة بعـدة برقيات لكى ينشر على الناس ما يهدئهم ويضمن ولاءهم للحكومة ولكنه لم يرد على تلك البرقيات . ثم أضاف المستر بنى :

« والآن ومسألة السودان تأخذ طابعا حادا والمظاهرات تنطلق فى كل مكان والشعور العام فى غاية الهياج ، لا يحتـاج الامر الى اكثر من كلمة ينطق بها السيد على ولـكن السيد على حتى الآن لم يقل هـذه

الكلمة . ان على السيد على الا يقف فى مفترق الطرق وان يحدد موقفه»
وتركت المستر بنى يفضى بكل أقواله ثم سألته فى هدوء :

هل هـذا الكلام هو لعلمى الشخصى أم لشخص السـيد على ؟
ثم اردفت فاذا كان مقصودا به شخصى فلا اجابة لى على أمر لا يخصنى .
أما ان كان المقصود به ان انقل هذا الحديث للسيد على فلم أكن فى أى يوم واسطة بينكم وبين السيد على . وقد كان الاجدر ان تقابله شخصيا .

فأفحم المستر بنى وخرج يجر اذيال الفشل .

ابن عفان الثورة المهدية

أما صلتى ببيت الامام المهدى طيب الله ثراه فقد غرسـها جـدى المغفور له الحاج خالد كما قدمت . اذ عندما ثار الامام المهدى الكبير ، وتقدمت قواته لفتح الابيض .. كان حاج خالد من اكبر التجار فى عاصمة كردفان ... وكان ثريا ذا مال وعقار ومواشى تزينه التقوى وحب رجال قبيلة العمراب وولائهم له .

وقد سارع حاج خالد فبايع المهدى عن عقيدة وايمان فى (قدير) وحارب معه برجاله فى (شيكان) وغيرها الى فتح الخرطوم ووضع كل ما يملك من مال طائل فى خدمة الدين والوطن ، حتى وصفه الواصفون بأنه قد تشبه بسيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه حين وضع كل ما يملك من مال فى خدمة الدعوة الاسلامية .

وكان لهذه المبايعة الصادقة أثرها فى نفس الامام المهدى حتى أصبح حاج خالد من أقرب المقربين اليه ، وأصدق مستشاريه .

ويقال انه لم يأكل الامام المهدى فى بيت أحد الا فى بيت حاج خالد وقد ذكرنى ابنه العظيم السيد عبد الرحمن بهذا عندما تناول معنا العشاء بمنزلنا ذات ليلة ثم قال عندما قام من المائدة (أكلت فى بيت أكل فيـه والدى) . وكانت عائلتنا تحتفظ بالاناء الذى أكل فيه الامام المهـدى

الى أن اهدته مؤخرا الى السيد الامام عبد الرحمن كأثر تاريخى للرابطة التى بين البيتين •

وليسمح لى القارىء أن استطرد فأروى واقعتين تدلان على المكانة التى كانت لجدى المرحوم الحاج خالد عندالامام المهدىوالسيد خليفته• كانت الواقعة الاولى عند فتح الابيض بقوات الامام المهدى • اذ وقع فى

وأمه فى حالة مؤلمة من الخوف والاشفاق على والدهم ... فأرجو ان تعمل شيئا لانقاذنا .

وتأثرت جدا من حديث الشاب وأسرعت الى رئاسة مجلس الوزراء حيث قابلت الصاغ صلاح سالم وقلت له ، وأنا واضح القلق والغضب :

علمت الان من محمد نجل اللواء البنا أن أباه اخذ فى لورى عسكرى الى حيث لا يدرون .

واننى لا أسأل عن الجرم الذى ارتكب ولكننى اذكركم بما لقى اللواء البنا من عذاب وتشريد فى عام ١٩٢٤ فى سبيلكم وهو يجاهد مع ثوار جمعية اللواء الابيض ... وكيف انه كان معرضا للموت وقد وضع فعلا فى الهدف لرميه بالرصاص ولكن عناية الله أنقذته .

واضفت فى عبارات حازمة جهدت ان اضمنها شعورى بالاستياء من وراء الالفاظ .

اننى اطلب فى الحاح اطلاق سراح البناء والسماح له بالسفر الى السودان ان لم يكن مرغوبا فى وجوده بمصر .

وسوف لا اخرج من هذا المكتب قبل ان يطلق سراح البناء لكى يعود الى أسرته التى تعيش الآن فى حالة بالغة من الازعاج والذعر .

دار بيننا هذا الكلام حوالى الساعة العاشرة صباحا ... ومكثت فىقاعة الانتظار برئاسةمجلس الوزراء حتى قبيلالساعة الثانية بعدالظهر . والصاغ صلاح سالم يبذل مجهودا فى التشاور فى هذا الموضوع خلال هذه الفترة حتى جاءنى صلاح سالم وقال لى : ان اللواء البناء فى الخارج فخذه ولم أضيع دقيقة واحدة فأسرعت نحوه . واركبته سيارتى وذهبت به الى أسرته :

وقد كان استقبال أبنائه وزوجته له استقبالا عاطفيا مثيرا دفع بالدموع الى عينى .

وقبل ان اتركه قال لى عبارة لم افطن الى مغزاها فى ذلك الحين ..
قال (ان التاريخ يعيد نفسه)

ورجعت الى السودان وتذكرت عبارة على البناء ونقلتها الى بعض أهلى فقصوا على حادثا تاريخيا وقع بين والده محمد عامر البناء وجدى الحـاج خالد وقالوا ان على البناء انما كان يشـير الى هـذا الحادث وتفاصيله كما يلى : —

غضب الخليفة عبد الله على محمـد عامر البنا الشـاعر لسبب من الاسباب وأمر باعتقاله وارساله الى المنفى فى الرجاف .

ولما غادرت الباخرة أمدرمان سمع جدنا حاج خالد بالخبر ، وكان صديقا لمحمد عمر البناء فتأثر جدا ... وخف الى دار الخليفة . ولما سمع الخليفة بحضوره خرج اليه وقال له : ماذا جاء بك يا أبونا حاج خـالد وكان لا يقول (أبونا) الا له .

فأجاب علمت انكم غضبتم على محمدعمر البناء وارسلتموه للمنفى وأردت ان اذكركم بان البناء هو الشـاعر المجيد الذى كان يوم فتـح الخرطوم الى جانبى وجانب الامام المهـدى يلقى قصيدته التى مطلعهـا (الحرب صبر ، واللقاء ثبات والموت من شأن الاله حياة) .

ولم أر سرورا فى وجه الامام المهدى اكثر من ذلك اليوم وقد دعا له عند الانتهاء من القاء هذه القصيدة بالخير .

اننى أرى ان البناء يستحق المغفرة من أجل هذه السابقة .

فقال له الخليفة فى الحال : استريح يا أبونا حاج خالد البنـاء . (هَسَّعْ) يرجع وأرسل الخيالة فردوه من الباخرة وهى فى عرض البحر بعد شجرة ماحى بك (شجرة غردون الآن) .

وبسبب هذه المكانة الراسخة التى كانت لحاج خالد عند الامام ثم عند خليفته من بعده اكتسب الكلمة النافذة والاستشارة المقبولة .

وقد ورث أبنه محمد عثمان عن أبيه تلك الخلال فوجد فى عهد الخليفة عبد الله ما وجد والده فبرز اسمه ، وحاز على الثقة وكان فى مقدمة مستشارى الخليفة فى الامور السياسية •

ولم يعد مستغرباً بعد هذه العلاقة الوثيقة العريقة ، أن يمنحنى الامام عبد الرحمن المهدى رحمه الله ما منحنى من ثقة ومودة واكرام ، لا زلت أقابلها بالشكر والاعتزاز ولشخصه وبنيه بالمحبة الخالصة والاجلال العظيم وبكل ما كان له أهلا من تقدير وهو الذى بذل فى سبيل استقلال بلادى مجاهدا بصحته الغالية ، وماله الكثير وتوجيهه السديد ، طيب الله ثراه وجزاه عن السودانيين خير الجزاء •

شخصيات لا تنسى

ان المفروض فى هـذه المذكرات ، ان تكون تاريخا لبعض احداث حياتى ، ولكنى اشعر انها ستكون ناقصة لو لم اسجل فيها نبذا قصيرة عن شخصيات اعجبت بها بين مواطنى ، ولما كان بين تلك الشخصيات عدد كبير ممن تربطنى بهم علاقة الدم وآخرون من زملاء الفكر والجهاد السياسى ، فقد رأيت ان اقصر الحـديث على من انتقلوا الى رحمة الله ورضوانه من أصحاب تلك الشخصيات التى لا تنسى ، ثم أورد ذكرهم مرتبا وفق الترتيب الهجائى لاسمائهم تغمدهم الله برحمته .

الشيخ احمد السيد الفيل

الشيخ احمد السيد الفيل رجل الدين الكبير ، وأحد أركان المجتمع والسياسة فى عهد ما قبل الاحزاب والوطنى الذى خدم بلاده فى غير من ولا أذى منـذ ان رأت عيناه النـور الى ان اغمضهما المـوت ــ من الشخصيات السودانية التى لا تنسى .

لقد كان رحمه الله رجلا مكتمل الخلق ، عف اللسان واليد طيب السيرة والسريرة أمين بر ذو غيرة وايثار .

واذكر له بكثير من الاعتزاز والاعجاب مواقفه السامية فى رفـع مستوى المحاكم الشرعية وقضاتها ... كما اذكر له عناده وصلابته وقوة شكيمته وهو يصول ويجول بين الخريجين فى النادى ، عاملا لمصلحتهم ساعيا لخيرهم .

ولعل الكثيرون يعرفون كيف كان جريئا وصلبا وهو يرأس لجنة العشرة التى جاهدت لرفع مستوى الخريجين حين كان الانجليز يعتزمون خفض هذه المرتبات .

لقد كان الخريجون هم الطليعة التى تمثل السودان الجديد وكان

خفض مرتبــاتهم انما يعنى دفعهم الى الوراء والتــأثير على مســتواهم الاجتماعى والادبى .

ولم يكن سهلا ان يقف المرء فى ذلك العهد ضــد خطة استعمارية يعززها حكم قائم شديد البطش .

أما أعمــاله فى مؤتمر الخريجين ومساهمته الفعــالة فى التطورات الوطنية فحدث دخل فى ذمة التاريخ .

لقد كان رجال الشرع يعتصمون فى تلك الاوقات بتقاليد تبعدهم عن كل نشاط مدنى .. ويحتفظون لأنفســهم بابراج عاجيه تعزلهم عن المجتمع مستسلمين لوقار تقليدى عتيق وهى فى واقعها خشية وحذر .

فك الشيخ احمد السيد الفيل هذا الحاجز الوهمى الكبير وخرج يحمل الفأس والمعول يصارع ويدافع ويحطم هياكل الزيف والطغيان .

لقد كنت على اتصال دائم بالشيخ احمد السيد الفيل طوال حياته . وكنت اعرف الناس بما تجيش به نفسه من حب للخير ، ووطنية خالصة مخلصة وايمان لا يتزعزع بهذا الشعب الأبى .

وكان من أبرز صفاته انه فى شيخوخته كل يحمل جراة الشــباب وعزيمته واندفاعه .

وقد اشترك بقلمه وتوجيهه فى جريدة صوت السودان يوم كانت لسانا ذربا ضد البريطانيين وروعى فى حــزم ودقة كتابها الاحرار ، فلم يجعل للمستعمرين اليهم سبيلا ورأس مجلس بلدى أمدرمان .

ومضى الى بارئه ولم تشب سمعته ريبة ــ رحمه الله وافاء عليــه من سحائب رضوانه .

حسن عثمان اسحق

لقد خسر السودان بوفاة السيد حسن عثمان اسحاق (أحد ابكار خريجيه) شخصية فذة ذات أثر .

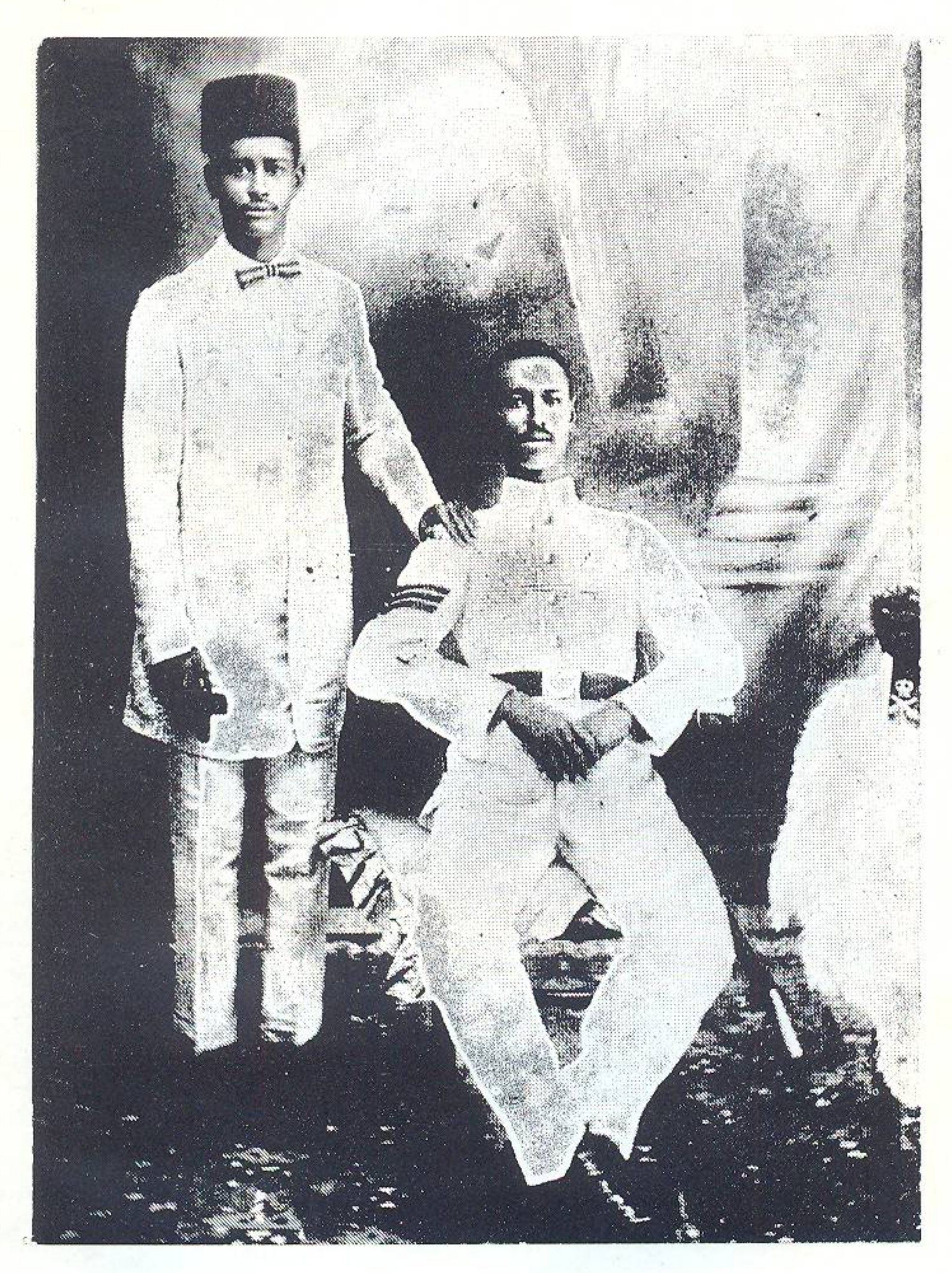
لقــد كان رحمه الله من المثقفين القــلائل الذين يحسنون اللغتين العربية والانجليزية كتابة وقراءة وحديثا ... وكان من المثقفين القلائل الذين يلمون بتــاريخ الســودان قديمه وحديثه الماما دقيقا ، وكان من المثقفين القلائل الذين رعوا تقاليدهم داخل السودان وخارجه ، وكانوا فى دقة الميزان رأيا وفهما وتقديرا .

لقد كان ينتمى الى حزب الاتحاديين وللختمية كعنوان ولكنه فى واقعــه كان للسودان كله لم يعــرف التحيز ولا التحزب ولا التعصب ولا الالتواء القبلى أو العنصرى أو الدينى وكان معروفا بالصراحة التى تجرح أحيانا ولكنه كان أبيض القلب ، لا يحقد ، ولا يوذى ولا يمشى بين الناس بالسوء .

واننى لاذكر له بكثير من التقدير مجيئه وهو محمول على سرير من شدة المرض ليؤيد وجهة نظرى فى لجنة الدستور التى كان هو أحد اعضائها . وكانت وجهة نظرى كما أوردتها فى غير هذا المكان تقول ان الحكم الثنائى قــد انتهى بالغاء مصر لاتفاقيــات ١٨٩٩/١٩٣٦ وان الدستور الجديد يجب أن يبنى على هذا الاساس ــ رحمه الله .

السيد حسين شريف

كان المرحوم السيد حسين شريف من أصحاب فكرة نادى الخريجين فى فجرها كما عمل للنادى بعد قيامه وقد عمل فى الصحافة عملا متواصلا الى ان وافاه الأجل فى سنة ١٩٣٨ فحزنت عليه البلاد حزنا عميقا ومشت الجماعات وراء نعشه وأحس اخوانه بالفراغ الــكبير الذى تركه موته الباكر وقد أهل الحسين للعطف العام عدة عوامــل منها ما امتاز به من وعى سياسى تقدم فيه جيله . لقد كان السيد حسين يتحدث عن الوطنية وعن الاستقلال وعن تقرير المصير فى حين ان الاكثرية من الشعب لم تكن تعرف ما تنطوى عليه هذه الالفاظ من معنى . وكان السيد حسين يؤمن بشعب السودان وبحقه فى البقاء والاستقلال وهو من أوائل الذين قالوا ان «السودان للسودانيين» ويرى السيد حسين ان التعليم هو وســيلة



الدرديرى وشـقيقه الرشـيد(الجالس)

ودعامة للاستقلال ولذلك نادى بانشاء الصندوق الاهلى سنة ١٩٣٢ والغرض من هذا الصندوق فتح المدارس الاهلية ونشر الوعى • وكتب السيد حسين عدة مقالات فى جريدة الرائد يدعو فيها لانشاء جريدة سودانية وطنية وكانت المقالات بعنوان «شعب بلا جريدة قلب بلا لسان» وكان السيد حسين خطيبا بليغا ذا أسلوب ساحر اذا اعتلى المنبر خلب الالباب وهز المشاعر وكانت كلماته الوطنية تسرى كالكهرباء فى أوساط المتعلمين • وكان السيد حسين جادا أمينا مخلصا فى طلب الاستقلال ولذلك لم يتهم حتى من المتطرفين من دعاة وحدة وادى النيل فى ذلك العهد وكان السيد حسين مترفعا عن الدنايا وقد اصطدم بالحكام الانجليز عدة مرات وقد نفاه الانجليز مرتين مرة الى الجنوب ومرة الى مروى •

وتولى رئاسة جريدة الحضارة ولم تكن هذه الجريدة تعبر عن رأى السيد حسين السياسى فقد كان قلم المخابرات لا يسمح بنشر رأى لا يتفق مع سياسة الحكومة ولكنه رغم هذا فقد استطاع أن يوجهها لخير البلاد •

وقد ظفر السيد حسين بمكانة مرموقة وباحترام وتقدير كل فئات الشعب ولم يكن محصورا بين الخريجين فقد كان الختمية يحترمونه رغم ما بين الختمية والانصار من خلاف •

الرشيد محمد عثمان

من الحوادث التى لا أنساها عند ذكر الاستشهاد بان المرء لايموت قبل يومه وان واجه الموت المحقق ما حدث أمام عينى لشقيقى الاكبر الرشيد كان يرحمه الله طالبا فى الكلية الحربية عام ١٩١٢ وكان طلبة هذه الكلية يشتركون فى تمرين اطفاء الحريق فى كلية غردون ليلا وكان على أنا وبعض الطلبة ان نستقبلهم وتتعاون معهم بوصفنا قوة طوارىء •

واذكر فى هذه اللحظة وقائع تلك الليلة كأنها مرت بالامس .

لقد قرع جرس الحريق ، وانفلت كل منا من مرقده ، وجرينا هنا وهناك فى انتظار النجدة وقفز على حين فجأة أمامى من أعلى السور أحد طلبة الحربية لان الباب كان موصدا وكان هذا الطالب هو الرشيد أخى وقد وقع عند سقوطه فقد انزلقت السنجه من جرابها وانكشف حدها وسبقه مؤخرها عند وثوبه الى الارض بينما ظل أعلاها معلقا به ، فلما هبط انغرست فى أبطه وخرجت من الجانب الآخر .

وكان من المحتمل لولا لطف الله ان يكون الجرح خطرا أو مميتا اذ كان اتجاهها الصحيح كما قيل يومئذ ان تنغرس فى بطنه وكتب له عمر جديد ولكن الى حين .

ففى عام ١٩١٣ تخرج الرشيد ضابطا والدنيا لا تسعه من الفرحة لقد كان المستقبل أمامه باسما . وتقرر نقله الى سنجه .
وودعناه فى المحطة .

واستقل الباخرة كرومر من سنار .

وفى جهة الشيخ طلحة هبت عاصفة شديدة وانقلبت الباخرة ومات وهو ابن عشرين عاما . ومن الذى مات غرقا ؟ الشاب الذى كان يقطع البحر سباحة بين أمدرمان وجزيرة توتى . ينجو حيث يتأكد الموت ويموت حيث تكاد تتأكد الحياة .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ولله الامر من قبل ومن بعد وعلى الرشيد رحمة الله ورضوانه .

محمد احمد سليمان

كان محمد احمد سليمان نادرة من نوادر رجال التعليم فى السودان كان مخلصا لمهنته . مخلصا لوطنه ضحى من أجلها بجهده ووقته ومستقبله وأخيرا ضحى من أجلها بروحه .
ولنبدأ من البداية :ـ

كان محمد احمد سليمان أحـد المدرسين البارزين بوزارة المعارف المشهورين بالقدرة وحسن الفهم وكثرة التجارب والحذق ٠

وكنت اعرف فيه هذه الصفات كما اعرف فيه الوطنية والغيرة على التعليم والادراك العالى لواجباته ٠

ولهذا السبب قد قصدته بمجرد ان اصبحت مدرسة بورتسودان الاهلية حقيقة عملية بما جمعنا من مال ٠ وبذلنا من استعداد ٠

وكنت أشـعر بأن قبول رجل مرموق من رجال التعليم الحكومى وينتظره مستقبل باهر لنظارة مدرسة أهلية أمرا ليس سهلا ٠

ولكن حسن ظنى به جعلنى لا اتردد فى مخاطبته فى هـذا الشأن ٠

وكان يدفعنى الى اختياره بالذات أمران :ـ

أولهما : رغبتى فى تأسيس المدرسة من الناحية الاكاديمية تأسيسا صحيحا سليما لا مطعن فيه بحيث تحصل على تقدير الناس واحترامهم وبالتالى اقبالهم وثقتهم ٠

ثانيا : رغبتى فى أن تقوم هذه المدرسة وهدفها اذكاء الروح القوية فى نفوس الطلبة وهى مسألة هامة وخطيرة بالنسبة لمنطقة من السهل ان تنـدلج فيهـا الثغرات القبلية والمفـاهيم الخاطئة التى كثر معتنقوها تخبطا وجهلا ٠

وقد كان محمد احمد سليمان عند حسن ظنى فاستجاب لطلبى بعد ان عرف مهمة المدرسة ٠

ولم يلن للاغراء ولم تثنه المخاوف ٠٠٠ لقد كان أمامه فى وزارة المعارف مستقبلا ضخما فتركه ٠

وكان أمامه فى التعليم الاهلى طريقا غير معبد بل طريقا وعـرا قل سالكوه يحف به الظـلام من كل جانب وتتنازعه شتى الاحتمالات ... فلم يبال – ان تصرفه فى ذلك الوقت ومع تلك الظروف لم يكن عاديا .

ودعاه قبل قبول استقالته من مصلحة المعارف المستـر اسكوت نائب المدير وأخذ يحاول اقناعه بالعدول عن الاستقالة ... ذكـره بأن التعليم الاهلى لم يستقر بعد وذكره بما ينتظره فى المعارف من مستقبل ثم ذكره بمدة خدمته ... غير ان محمد احمد سليمان ظل مصرا على موقفه ...

واقبل محمد احمد سليمان على العمل فى المدرسة اقبـالا شديد .

كانت معركة الانشاء وخاصة فى بورتسـودان معركة طاحنة ... واصل فيها الليل بالنهار ... لقد كان مجهودا ضخما أثر على صـحته وهو مصاب بداء الرئه .

ولم يكن يستمع الى نصيحتى وأنا اطالبـه بالاشفاق على نفسـه فلا يرهقها بما لا تطيق وكان يستمر فى بذل جهوده وهو يقول : –

انى اعرف مرضى ، واعرف ما هو مصيرى ومن الخير لى أن أموت شهيدا فى ميدان الواجب الاكبر ... ميدان التعليم .

ومضت المدرسة فى طريقها .

وشكا الىّ كثيرون من أباء الطلبة بأن الشركات ودور الاعمال فى بورتسودان لا تقبـل خـريجى المدرسـة من السـودانيين وتؤثر عليهم الاجانب .

وانتهزت أول فرصة قابلت فيها الحاكم العام عند زيارته لبورتسودان وتحدثت اليه فى الموضوع وقلت له ان أبناء البلاد احق بان يجدوا مجالا فى مناصب الشركات ودور الاعمال من غيرهم .

وقال لى : ان الشركات ودور الاعمال تقوم على أساس تجارى . ويتطلب عملها خبرة ومرانا فى هذا الميدان وليس عندكم تعليم تجارى فكيف توظف الشركات ودور الاعمال أشخاصا لا تستفيد منهم . ؟

وحدثت محمد احمد سليمان ما دار بينى وبين الحاكم العام .

فقال لى دون تردد : اذن فليكن لدينا فى المدرسة الاهلية ببورتسودان تعليم تجارى وسافر الى مصر ... واحضر معدات التعليم التجارى ماكينات كتابة عربى وانجليزى وكتبا ومدرسين ، مناهج الخ . وانشأ القسم التجارى فى ستة أشهر فقط .

وبعد سنتين فقط ظهرت الدفعة الاولى من خريجى هذا القسم حيث تلقفتهم الشركات ودور الاعمال جميعا . وكان عدد خريجى هذه الدفعة عدد لا يستهان به من أبناء البلاد .

وقد سبقت المدرسة الاهلية فى بورتسودان بذلك التعليم الحكومى التجارى .

وكانت المدرسة الاهلية فى بورتسودان ان تدرس لهذا القسم بالليل مما مكن الكثيرون من الموظفين وغيرهم ممن يعملون فى النهار من الالتحاق به . وكانت بذلك فائدة مزدوجة .

ومات محمد احمد سليمان من تأثير المجهود الكبير الذى بذله .

مات كما يموت البطل فى وسط المعركة شجاعا قويا أبيا ، لم يستسلم لم يتقهقر ، لم يخفف اللواء .

فسلام عليه بين الشهداء .

البربرى

محمدالسيد البربرى رب الاسرة المعروفة بهذا الاسم فى بورتسودان ومؤسس ذلك البيت التجارى الكبير ومن الشخصيات التى لا تنسى .

كان رجلا كريما فياض الكرم ينبعث لعمل الخير عن طبع اصيل كما ينبعث العبير عن الزهر ، والنور عن الشمس .

كان رجلا ذا دين يؤمن بربه ايمانا صحيحا سليما ، يتبع أوامره ويتجنب نواهيه ، ولا يفرط فى شعيرة من شعائر الاسلام .

ورغم انه لم يكن متعلما فقد كان فطنا ذكيا حاضر البديهة ، وقاد القريحة قد تقلب فى التجارب فنضج وتحمص .

وقد اتصلت به أثناء عملى فى بورتسودان عام ١٩٤٨ فنمت بينى وبينه صداقة وثيقة ازدادت على الايام قوة وصلابة .

وكان يجمع بيننا شعور مشترك بضرورة العمل لمصلحة الشعب .. وكثيرا ما فكرنا فى انشاء مؤسسة تسد حاجة عامة فى البحر الاحمر حيث ضن الاستعمار على أهله بكل سبب من أسباب التقدم والتحضر والعمران .

ولم يكن اختيار هذه (الحاجة) سهلا ، ذلك انه اين ادرت بصرك رأيت نقصا أو قصورا فى ضرورة من هذه الضروريات التى تعتبر قواما للشعب ... أى شعب .

واستقر رأينا فى النهاية على تقديم (التعليم) على غيره لان منطقة البحر الاحمر على سعتها لم تكن توجد بها آنذاك غير مدرسة وسطى واحدة وبضعة كتاتيب .

وقد استهل محمد السيد البربرى التبرعات بمبلغ ألفين لبناء

مدرسة بالخشب وقال لى فى صدق أرجو ان تأتى الى كلما طلبت مبلغا للمدرسة وتفتح هذه الخزنة (خزنة بجانبه) وتأخذ ما تريده .

ومضينا نعمل لبناء المدرسة الاولية الوسطى والثـانوية فى مبانى مؤقتـه بالايجار .

وحدث ان احتجنا للمزيد من المـال وجئت لمحمد السيد البربرى وحدثته بما أريد وكلما جئت لزيادة المال قال لى ان خزانتى بين يديك فخذ منها ما تحتاج اليه . فنحن قد بدأنا عملا ويجب ان تتمه ولما بنيت المدرسة الثانوية بمبلغ لا يزيد عن الخمسة عشرة ألف جنيها اكثرها من البربرى جئته أخيرا فقلت اننا نحتاج الى أربعة آلاف جنيـه فقال لى اجمع لى مائة جنيه من اخوانك التجار وأنا ادفع الباقى .

فاستغربت لذلك فقلت كيف تعجز عن دفع مائة جنيه مع انك تدفع فى الوقت نفسه أربعة آلاف .

ولم أفطن الى غرضه ... فسألته : وما هى جدوى هـذه المائة جنيه ما دمت قد قررت دفع المبلغ كله .

فاجاب فى بساطة هزتنى (عَلَشَان أولادى بكره ما يقولوش دى مدرسة أبونا) لقد كانت كلمات يسيرة ... ولكنها اشتملت على معنى كبير عميق ... ودلت على روح الرجل وجمال نفسه .

وقد قضيت فى بورتسودان زمنا ولم يكن يمر يوم دون ان اشهد من فضائل هذا الرجل ما يزيدنى فيه حبا خالصا لله وحده .

بل لم يكن يمر يوم دون ان يشهد الناس من فضـائله ما يحببهم فيه جميعا .

لقد كان مثالا عاليا للمواطن الصالح يرحمه الله .

وعند ذكر التعليم الاهلى على المؤرخ المنصف الا ينسى المدرسة الاهلية بأم درمان وكيف ان نفراً كريما من المواطنين قد هبوا فى وجه المستعمر فى سنة ١٩٢٧ وطالبوا بفتح هذه المدرسة التى كانت النواة الصالحة للتعليم الاهلى فى السودان ونذكر من هؤلاء الرجال على سبيل المثال السيد اسماعيل الازهرى المفتى السابق والشيخ احمد حسن عبد المنعم والشيخ سيد احمد سوار الذهب فى تشييدها رحمهم الله جميعا فقد قامت هذه المدرسة على اكتافهم وان كان لكثير من المواطنين بعد لهم الفضل فى تسييرها كالبكباشى محمد نور الذى تولى رئاسة لجنتها وعمل لها بكل اخلاص الى ان مات رحمه الله هذا وقد تشرفت أنا بالعضوية فى لجنتها العامة والفنية والتدريس بها فى أوقات فراغى .

محمد سر الختم صالح جبريل

كان المرحوم محمد سر الختم صالح جبريل فى عام (١٩٢٣) اقدم ضابط فى فرقة العرب الشرقية المرابطة فى القضارف .

وكان فى فرقة العرب الشرقية من الضباط يوم ذاك نخبة كريمة عرفت بوطنيتها وحسن استعدادها للعمل العام . ومن بين هؤلاء اذكر اسمى عبد الله بكر وعبد الدائم محمد .

وكنت دائم الاتصال بهؤلاء الضباط بحكم عملى كنائب مأمور المركز وبحكم الصداقة التى تربطنى بالمرحوم سر الختم وعبد الله بكر وبعض الضباط الآخرين .

وحدث ان التحق بفرقة العرب الشرقية ضابط ملازم ثانى من الدفعة الجديدة يدعى الجيلى العوض (رحمه الله) .

وذات يوم أراد هذا الضابط السفر ، ولم تكن توجد بطبيعة الحال فى ذلك العهد سكة حديد .. ولا سيارات فطلب الضابط من القائمقام الانجليزى ملز بك قومندان الفرقة اعطاءه حسب القاعدة المتبعة ثلاثة جمال لنقله هو وأسرته الى مقره .

ويبدو ان القومندان استنكر على الضابط الجديد هذا العدد من الجمال فاجاب ساخرا . ثلاثة جمال ليه ... زمان فى المهـدية ما كنت أنت وأمك وأبوك بتركبوا فى جمل واحد ؟ الجد شنو ؟

وغضب الجيلى العوض لهذا التعرض غير الكريم .

وفى الحال جاء الى ميز الضباط وحدثهم بما تفوه به القومنـدان من عبارات مهينة وكان واضح التأثر .

واستاء جميع الضباط لتصرف القومندان ورأوا ان الاهانة التى وجهها للضابط الصغير تشملهم جميعا .

وعندئذ أمر سر الختم صالح جبريل كل الضباط ان يرتدوا اللباس الرسمى فلما فعلوا قادهم فى تشكيل عسكرى الى القومندان .

ولم يكد القومندان يراهم على هذا الحال ، حتى وضح الانزعاج فى وجهه .

وقال سر الختم للقومندان : ان الكلام الذى وجهته للضابط هذا الصباح قد اساءنا كلنا .

واننا لنحتج على هذا التصرف .

وادرك ملز بك حـرج مركزه ... فنفى بكل شدة أقوال الجيلى العوض وانكر أنه تفوه بتلك العبارات التى نسبت اليه واستشهد بالصاغ حسيب أركان حرب الفرقة فأيد أقواله واعتبر الموضوع منتهيا .

ونقل المرحوم سر الختم صالح جبريل الى الابيض واتهـم بقيادة المظاهرات التى سارت ضد الحكومة .

وصدر أمر باحضاره الى الخرطوم .

ولم يكد الناس يتسامعون بنبأ دعوة سر الختم حتى هرعوا باعداد كبيرة الى المحطة لوداعه .

وعلم قومندان البوليس بوجود هذه الحشود فى المحطة فخف الى منزل سر الختم وطلب اليه الركوب معه وكانت نية القومندان ان يذهب به الى محطة (العين) بدلا من محطة الابيض المكتظة بالمودعين وادرك سر الختم ما أريد به وركب سر الختم فى المقعد الخلفى للسيارة وفيما هما فى الطريق اخرج سر الختم مسدسه العسكرى من جيب ردائه وصوبه نحو القومندان ، وطلب اليه الذهاب به الى محطة الابيض .

وكان القومندان يعرف سر الختم جيدا ، فاطاع دون تردد .

وكان لسر الختم ما أراد فقد استقل القطار من الابيض مودعا بحفاوة شعبية ضخمة . تحدثت عنها المدينة طويلا .

ولم يمكث سر الختم بالجيش السودانى غير فترة قصيرة فقد التحق بالجيش المصرى ، ولم يعد الى السودان الا عند احالته الى المعاش .

لقد كان المرحوم سر الختم صالح جبريل من الشخصيات السودانية القوية الجريئة .

كان يحافظ على كرامته وعلى كلمته ، وعلى صلاته الاخوية رحمه الله .

خاتمة

الى هنا تنتهى الصفحات التى رأيت ان اقدمها لقراء هذه المذكرات. وهى كما رأى القارىء ليست تاريخا لشخصى أو عائلتى ، وانما هى لمحات وذكريات وبعض صفحات من حياة ، تخيرتها وفى يدى ميزان أرجو الا يكون قد اختل وهذا الميزان هو — كما قدمت — ان اقف عند ذكر احداث حياتى على ما قد يصور جانبا من تاريخ بلادى ، أو يشيد بعمل وطنى قام به جماعة أو أفراد كانت أعمالهم فى زمانهم والظروف المحيطة بهم يوم كان المستعمر جاثما على الصدور ومكمما الافواه حقاً أعمال بطولة ، تقتضى الاشادة والانصاف فاذا تطرفت فالى حادثة تصور مواقف المستعمرين من المواطنين معتمدا على تجاربى الشخصية لاننى بلا شك اكون اعلم بما جرى لى مما جرى للآخرين وتناقلته الروايات بالتحريف أو التقليل أو التهويل ، وكما قلت من قبل ليس هدفى من كل ذلك الا ان اضع أمام المؤرخ مادة يضعها تحت مجهره ويضاهيها بما يتوفر لديه من مواد حتى يصل الى الحقيقة فتجنبنا كل ما يثير الجدل أو يخدش تاريخ مواطن أو فريق . فان وفقت فذلك ما أملت ، والا فللمجتهد اجران والحمد لله على كل حال .

الطابعون : مطبعة التمدن بالخرطوم